

قال الله تعالى

"لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"

صدق الله العظيم

بقلم

السيد محمد بن علوي المالكي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد فهذه رسالة مختصرة عن مسائل مهمة ، كثر فيها الخلاف بين طلبة العلم ، منها مسألة الاستواء المستفادة من قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ على العَرْش استوى ﴾ ، ومنها قضايا تتعلق بتوحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، وبعضها يتعلق بمقام الخالق والمخلوق ، والمجاز العقلي في هذا الباب ، وما ينبغي اعتقاده فيه من غير تأويل الجاهلين أو انتحال المبطلين أو تحريف الغالين .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتّباعه ، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، إنه سميع قدير ، وبالإجابة جدير .

وصلى الله وسلم على خاتم رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه الفقير إلى الله تعالى

محمد بن السيد علوي المالكي الحسني

خادم العلم الشريف بالبلد الحرام

عقـــائد أهـــل الحـــق

هي عقائد السلف الصالح

الحمد لله وحده لأن كماله سبحانه هو الكمال الذاتي المنزه عن الحدود المطلق عن القيود ، وكل ما اتصف به سواه من علم وحياة وسمع وبصر وكلام ، وغير ذلك من صفات حتى الوجود فمنحة منحها للمعطي سبحانه وهو مالكها والمتصرف فيها ، وكل كمال في الوجود فهو كماله ، ملك له سبحانه . وإذا كان الخط الجميل والصنعة المتقنة ناطقة بلسان حالها بمهارة الكاتب والصانع وبراعته ، فكل ما في الوجود ألسنة حمد تنطق بحكمة البديع عزّ شأنه وعلمه وقدرته ، فلا يستحق الحمد على الحقيقة سواه ، لأن غيره ليس له الكمال الذاتي ، وليس مصدراً للكمال ولا منعماً ولا مدبراً .

وكل من تشرف بنعمته ، توجه عليه توجهاً ذاتياً شكر المنعم عز شأنه والشكر يتضمن الاعتراف للمنعم بالكمال والإنعام والمنة ، وذلك يقتضي استعمال نعمه في مراضيه ، فإن استعمالها في مساخطه كفران بحق المنعم والنعمة ويتضمن الشكر العظيم والمحبة ، وهما مراتب أعلاها العبادة ، ولا يستحقها إلا المنعم الأعلى سبحانه ، لا لشيء إلا لأنه المنعم الحق . قال تعالى . **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين امنوا أشد**

حباً لله ﴾ . فلم ينف عن المؤمن أن يحب أحباب الله فيه بقوله تعالى : ﴿ والذين امنوا اشدّ حباً لله ﴾ ، وإنما الممنوع أن يتغالى في حبهم إلى أعلى المراتب ، فيسوي بين الله وبين خلقه في أعلى مرتبة التي هي حق الله وحده لأنه لا يستحق الحب الأعلى والرغبة العليا والرهبة العليا سواه

وحب العبد لربه خالقه ومنشئه هو حب له لذاته سبحانه ، وحده لأحباب الله ، إنما هو لحب الله لهم لا لذواتهم ولو لم يحبهم الحق لم أحببناهم

وهي امتازت العبادة عما دونها من المحبة والتعظيم ، فإن الفرق شاسع بين التعظيم الذاتي وغير الذاتي ، والحب الذاتي وغير الذاتي

ومن تقرب إلى الله بعبادة غيره في قوله تعالى : ﴿ مانَعْبُدُهُمْ الا لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفى ﴾ . لم يقولوا ما نحبهم لله أو ما نعظمهم لله ولو تقربوا إلى الله بمحبتهم أو تعظيمهم - وكانوا أهلاً لذلك - لكان ذلك قربى حقيقة ، ولكن تقربوا إلى الله بمحبتهم المحبة العليا وتعظيمهم التعظيم الأعلى ، وذلك خاص بالمنعم الأعلى ، وتلك هى العبادة لا مطلق تعظيم ولا مطلق محبة ، وهذا في نفسه شرك لأنه مساواة لله بخلقه فيما هو حق الله وحده ، وإن جردوهم عن التأثير والخلق والتدبير . لأن مساواة الحق بغيره في التعظيم وحبه كحبه كفر صريح ، فقد تقربوا إلى الله بكفر لا بجائز .

وقد ضل قوم نسبوا نعمة الحق لبعض خلقه ، فاتخذوهم أرباباً ، وكذلك من اعتقد فيهم التأثير الذاتي أو العلم الذاتي أو حق التشريع من تحليل وتحريم ، قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه ، كما جاء عن المصطفى ﷺ .

ومن وصف الخالق بصفة المخلوق فهو مشرك ، وذلك كمن يعتقد فيه تبارك وتعالى أنه جسد ذو طول وعرض وارتفاع أو نسب إليه الاتحاد بخلقه أو الحلول

ويتخيل الذين لا يفقهون أن كل موجود جسم ، إما من جماد أو هواء أو نور إلى غير ذلك . وتلك أوهام باطلة يردها الدليل ، والذي تقرره العقول والدليل ، وجاءت الرسل بتحقيقه : أن الحق عز وجل منزه عن مشابهة الحوادث .

ولا فرق بين من يتخيل جسماً يعبده ، وبين من يعبد صنماً من حجر أو خشب أو معدن ، ولا خلاف بين أهل الحق في أن المجسم جاهل بربه كافر به . وما نسب للحق عز شأنه من مجيء ونزول واستواء ، فبدهيٌّ أنه ليس نزول الأجساد ، ولا مجيئها ولا استواءها ، وإنما هي أمور تليق بالمنزه عن الشبه والأمثال . قال تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ .

وقال تبارك وتعالى . ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّموات

والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ . فواضح أن الاستواء كان بعد خلق السموات والأرض . وانظر معنى ﴿ ثم ﴾ فهو فعل إلهي منزه عن أن يشبه ما هو من الخلق .

وصفات الحق الذاتية أزلية : فالعلم أزلي ، والقدرة والإرادة أزليتان . وكل ذلك ثابت قبل الخلق منزهاً عن أن يحد بزمان ومكان .

وكما أن الفعل إذا نسب للحق تجرد عن الزمان لأنه سبحانه منزه عن الزمان كقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ لا يتقيد بالحال ولا الاستقبال ، كما هو الشأن في المعاني إذا نسبت لزمن فهي إرادة مطلقة أزلية أبدية . وكذلك ﴿ وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ . لا يتقيد بزمان ، كان ولم يزل .

وقد قال تعالى في طالوت : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ . فالبسطة كلمة واحدة ، وإذا أضيفت للجسم كانت جسمانية تقاس بالطول والعرض والسُمك ، وإذا أضيفت للعلم الذي هو معنى غير جسماني كانت بما يناسبه فلا تقاس بالمعيار الجسماني

وإذا كان هذا في الحوادث ، فما نسب للحق وجب أن يكون منزها عن كل شبه بالحوادث ، لأن ذلك شأن الذات العلية المقدسة .

وكذلك الظرف إذا نسب للبارئ عز شأنه تجرد عن الظرفية ، لأن ذاته عز وجل منزهة عن الظرفية ، ولا تليق بها ، وكان معناه بما

يناسب الحق المنزه عن المثل والشبيه .

فقوله تعالى ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ مجرد نسبة ﴿ في ﴾ للحق زال منها الظرفية وكذلك (على) و (مع) إلخ

ونزول الجسم ومجيئه إنما يكون بالانتقال اللائق بالأجسام ونزول من ليس بجسم يستحيل أن يكون النزول المعروف من الأجسام ، وإنما هو نزول إلهي منزه عن الانتقال والمثل ، كما أن الذات تعالت وتقدست عن المثل

وفي الرسالة القشيرية : « قربه كرامته ، وبعده إهانته ، علوه من غير توقل ، ومجيئه من غير تنقل » . من غير توقل - لا تقله - لا يحمله حامل .

وكما أن أهل السنّة لا خلاف بينهم في أن اليد في قوله تعالى : ﴿ يدُ الله فَوْقَ أيْدِيهِم ﴾ . هي غير الجارحة المعلومة . وكذلك الساق والأصبع ونحو ذلك . فهي غير اليد التي نعرفها والساق التي نعرفها والأصبع التي نعرفها ، فيجب أن نقول : نزوله ومجيئه واستواؤه غير النزول المعروف في الأجساد - ومجيئها واستوائها .

ومن أثبت للحق النزول والمجيء والاستواء الجسماني فقد ضل . وقد آمن أهل الحق بالنزول والمجيء الإلهي المنزه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث ، وكفروا بالنزول والمجيء الجسماني بالانتقال من مكان إلى مكان .

وآمنوا بالاستواء الإلهي على العرش ، وكفروا بالاستواء المعروف من الأجسام . لأن الاستواء المعروف من الأجسام مكيف ، أما الاستواء الإلهي فإنه غير مكيف .

وهذه هي الطريقة السلفية الصحيحة التي كان عليها جمع الأمة من الصحابة والتابعين

أما من انتسب بالانتساب إلى السلف ، وهو يثبت الجسمية للحق سبحانه عن افتراء المفترين أو يشككون فيها فيقول لا نقول جسماً أو غير جسم فهو منسب للحق تبارك وتعالى بتجويز الجسمية عليه وهذا عدو ظاهر

فالخلاف الحقيقي بيننا وبين المشبهين ، هو في إثبات الجسمية ونفيها فإن الموجود إما أن تجوز عليه الجسمية ، أو لا تجوز ، ومستحيل أن يتجرد عن الأمرين أو يثبت له الأمران فتجوز عليه الجسمية ولا تجوز . ولابد من واحد منهما ، فلا يسع أولئك القوم إلا أمر من ثلاثة أمور :

* إما أن يثبتوا له سبحانه الجسمية .

* أو ينفوها عنه .

* أو يقفوا موقف الشك .

فيعدوا فيمن يجوز الجسمية عليه . ولا فرق بين من جوزها عليه

سبحانه وبين من أثبتها له . فالكل من الضالين الذين أشركوا بربهم تبارك وتعالى ، حيث وصفوه بصفة الحادث المحدود .

والذي عليه أهل الحق أنهم جزموا وآمنوا أنه لا يجوز بوجه من الوجوه أن يكون الأحد سبحانه فرداً من أفراد كلي فيشمله حد الجسم أو غيره من المخلوقات . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ومن آمن بأن الحق منزه عن الجسمية أسقط من خياله جميع لوازم الجسمية . ومن لم يفعل فما زال في إيمانه بقية من الضلال .

كان الله ولم يكن شيء غيره :

وكل ما سوى الحق مخلوق حادث بعد أن لم يكن . قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ .

ومهما تصور العقل امتداد سلسلة الحوادث في الماضي فحيث كل منها مسبوق بالعدم ، فالسلسلة كلها مسبوقة بالعدم ، ولابد من تقدم موجدها عليها جميعاً ، في مجموعها وعلى كل فرد منها ، تقدماً ذاتياً منزهاً عن الزمان .

وقد صح عنه ﷺ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه « كان الله ولم يكن شيء غيره » . « كان الله ولا شيء معه » . « كان الله ولم يكن شيء قبله » . وهذه روايات الصحيحين والسنن .

وحيث إن الروايات إذا رويت بالمعنى اتّحدت فيه ، فلابد أن ترمي إلى معنى واحد وتدور عليه ، وإن اختلفت ألفاظها ، ورواية « ولم يكن شيء قبله » تحتمل وجهين ، أحدهما مطابق للروايات الأخرى فإنه إذا لم يكن شيء معه لا يكون قبله فلا يصح عاصياً الأخذ بالوجه الآخر لمخالفته للروايات الصحيحة .

ومن استدل برواية (أنت الأول فليس قبلك شيء) فقد أبعد ، فإن هذه الرواية تحتمل الوجهين أيضاً ، ولا يصح تأييد المحتمل بالمحتمل . على أنها لا تتنافى مع الروايات الصحيحة كما تقدم ، فيجب حملها على الوجه المطابق لها ، وإنما يحكم بالصريح على المحتمل .

ورواية الإمام أحمد في مسنده « كان الله قبل كل شيء » .

ومن أخذ بأحد الوجهين من محتمل وترك ما لا يحتمل من الروايات ، فقد خالف الأصول العلمية ، وأقام الدليل على أنه متبع للهوى ، وسلك مسلك أصحاب الزيغ الذين يأخذون بوجه مرجوح من نص محتمل ، ويتركون النص الذي لا إبهام فيه ولا احتمال ، والذي يعين المراد وينفي الإحتمال المرجوح .

وهذا إذا لم يكن هناك مصدر للحديث غير الصحابي الذي نقلت عنه هذه الروايات ، فكيف وللحديث مصدر آخر صريح لا يحتمل إلا وجهاً واحداً .

ففي رواية بريدة رضي الله عنه (كان الله ولا شيء غيره) أخرجه ابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة . وهذا يعين المراد ويرفع ما توهمه المخطئون والمبتدعون ، ولا تردد في ذلك عند من بحث الحديث مقدماً ما جاء به المصطفى ﷺ على الهوى . ولم يلعب بالحديث ويتبع المتشابه ويترك المحكم الصريح . نعوذ بالله من الهوى ونسأل الله العفو والعافية .

والواضح في هذه الروايات جميعها - وهو الأمر المقطوع به - أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قد فهموا من حديثه ﷺ أموراً : أن الله سبحانه خالق كل شيء ، وأنه تبارك وتعالى كان قبل كل شيء ، ولم يكن شيء غيره ؛ وكان ولا شيء معه ، ولم يرد عن أي صحابي ما ينافي ذلك صريحاً بأي وجه من الوجوه ، وفهمهم رضي الله عنهم حجة على غيرهم ، وقد سمعوا قوله الشريف ﷺ كفاحاً ووعوه وعقلوه وهم الأمناء .

وعلى هذا كان السلف الصالح من خير القرون .

وعن أبي رزين العقيلي قال : قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق ؟ قال : « كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء » ، رواه الترمذي بسند حسن ، وقال : قال أحمد قال يزيد : العماء أي ليس معه شيء ، وحسبك بالترمذي والإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، وشيخه يزيد بن هارون حجة .

وفي رواية الإمام أحمد (ثم خلق العرش بعد ذلك) . وفي هذا بيان لمعنى (وكان عرشه على الماء) فالعرش والماء مخلوقان ، والقدرة صالحة لخلق العرش والماء والهواء في آن واحد .

وقد بينا لك بهذا الحق الواضح البين عقلاً ونقلاً

فهذا هو دين السلف الصالح جميعاً ، وما عداه دين الضالين السفهاء ، وماذا بعد الحق إلا الضلال !

وقد آمنا بما جاء عن الله على مراد الله عز وجل ، وآمنا بما جاء عن الرسول ﷺ وهو الذي يليق بالمنزه عن الجسمية قطعاً ، لا على مراد المحدثات والتصورات والأوهام

وكل ما خطر ببالك ، من تصور للذات العلية فهو هالك ، والله بخلاف ذلك

وليس للإنسان أن يذهب في تصور الذات العلية المذهب الخاطئ ، حيث يقيس الخالق على المخلوق ، مع علمه بأنه المنزه الذي ليس له مثيل .

على أن الحق قريب وهو ثابت في فطر العقلاء ، ومن اليسير أن ينتبه المؤمن له ويطرح الخيالات والأوهام الباطلة ، فإن كل مؤمن صحيح الإيمان يوقن بأن الحق هو خالق المكان والزمان وسائر الأكوان ، وأن وجوده سبحانه سابق على وجودها ، وأنه عز شأنه كان ولا زمان

ولا مكان ، وأنه سبحانه بعد خلق الزمان والمكان والأكوان لا يزال على ما عليه كان ، لم يتغير ولم يتبدل منزهاً عن الزمان والمكان والأكوان .

وقد تقدم لك أن انفراد الحق عز شأنه بالوجود قبل خلق المخلوقات من أمكنة وأزمنة وجهات ومكاني وزماني هو عقيدة أصحاب رسول الله ﷺ وسائر السلف الصالح ، وهو الذي يثبته العقل البرهاني، وما سواه دخل لا سند له من عقل ولا نقل فلا يلتفت إليه .

أما كيف خلق الله الخلق فقد قال تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ والعبرة بعموم اللفظ الإلهي الأقدس . والإيجاد والإمداد شأنه سبحانه ، والله على كل شيء قدير .

وكما أن الإنسان إذا أراد شيئاً في مملكته الخاصة كان ، فإرادتك في مملكتك الخاصة مثل مصغر ، يكفي لإقامة الحجة عليك في الإيمان بنفوذ إرادة المتفرد بالكمال المطلق سبحانه في عوالم الإمكان ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

الأحدية والكلام والقدر :

هو الأحد سبحانه لا يشارك في أحديته - في ذاته وصفاته وفعله - لا يعلم كنهه غيره ، وإذا كان المحدود لا يدرك ما هو أوسع منه حداً، فكيف يدرك غير المحدود ؟ قال تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾

والإدراك الإحاطة بكنهه .

وقال : ﴿ وُجُوهٌ يَومئذٍ نَاضرةٌ إلى ربهَا نَاظِرةٌ ﴾ . وصح عنه ﷺ رؤية المؤمنين لربهم عز وجل ، والإدراك المنفي غير الرؤية المثبتة فيصح أن يراه ولكن لا يحيط به ، وهي غير الرؤية المقتضية للجسمية أو الحدوث ، وقد آمنا بأن قول الله حق وقول رسوله حق على الوجه الذي يليق بكماله الأقدس عز وجل لا تشبيه ولا تكييف . سبحانك أنت كما أثنيت على نفسك لا نحصي ثناءً عليك .

وكلامه عز وجل حق ، ومذهب السادة الصوفية فيه مذهب السلف الصالح أنه قديم غير مخلوق ، ومن زعم أنه حادث يشترك مع الحوادث في الحدوث فهو ضال مخالف لمذهب السلف . وفتنة القول بخلق القرآن - التي حمل رايتها ابن أبي دُواد - ثابتة ، ولا يشك عاقل في أن الإمام أحمد ضرب ليقول بقوله فلم يقل ، وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ فهو محدث بالنسبة لهم لم يعلموه من قبل ولم يعرفوا مثله عن آبائهم ، ومن زعم أنه محدث بالنسبة للذات العلية فقد خاب وخسر . ويسأل بعض من لا يفقه : كيف يحكي الحق قول أناس قبل وجودهم ؟ والجواب عن ذلك يسير .

ألم يثبت في الصحيح أن القلم كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ؟

أفلم يكن ما سيخاطب الله به موسى والأنبياء مكتوباً قبل هذه النشأة الإنسانية ؟ لا شك أن ذلك كان موجوداً في عالم الظهور في

اللوح ، وكان قبل ذلك في الغيب الذي لا يعلمه إلا الله في البطون ، وسلمنا علم كنهه لله .

أما القدر فإيمانهم فيه إيمان الصحابة رضوان الله عليهم لا يبطلون حجة الله على خلقه ، فالتكليف حق ، وقد أجمعت الأمة الإسلامية من جبرية ومعتزلة وأهل السنة على ذلك ولم يسقط التكليف - بشروطه المعروفة في الشريعة المطهرة إلا الملحدون الإباحية الخارجون عن الإسلام والقدر والإرادة والقدرة لا شك في مطابقتها للعلم الأزلي . ولا تنافي بين الإحاطة العلمية والتكليف عند الجميع ، وإذا كان خلاف الأمة الإسلامية بجميع طوائفها لم يتناول التكليف نفسه ، وإنما ينصب على سبب التكليف ؛ فالخلاف في حقيقته إذاً ليس بذي بال ، فإن من وقف على سبب التكليف بيقين فسيعلم أنه مكلف ، وأن التكليف حق . وسيعمل على ذلك الأساس ، ولا يضر إن كان سببه هذا أو ذاك

وحيث إن الأمة قد أجمعت على التكليف ، فلا شك أن من آمن به وجهل سببه فهو ناج عند الجميع ، ونرد إلى العلم الإحاطي سر التوفيق بين ما قصر علمنا عنه ، ولا خلاف بين العلماء أنه من الممكن أن يكون هناك من الحقائق ما إذا اطلعنا عليه أقمنا الحجة على أنفسنا بوجه من الوجوه الممكنة ، والعقل النزيه لا يجعل ذلك في حيز المستحيلات . وفوق كل ذي علم عليم [1] .

---

(١) أهل الحق العارفون بالله لشيخنا العارف المرشد السيد محمد الحافظ بن عبد اللطيف التجاني المصري

الرحمن على العرش استوى

والفوقية العرشية لم ترد

آمنا بالله ، وبما جاء عن الله على مراد الله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ هذه هي عقيدة السلف ، وهذا هو الذي يجب أن نواجه به النصوص الواردة في الكتاب والسنة المطهرة دون زيادة أو نقصان ، ولكن بعض من يدعي الالتزام بذلك يزيد من عنده وباجتهاده ورأيه وهواه لفظ : (وأن الله مستقر فوق العرش).

وهذا اللفظ بنصه هكذا لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة وإنما ورد لفظ الاستواء ، ولفظ الاستواء ليس خاصاً بالعرش بل ورد في غيره كقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ والقول (بأن الله فوق العرش) يحتمل معانٍ متعددة منها ما هو كفر صريح ومنها ما هو إيمان صحيح ، لأنه إن أراد بذلك التجسيم والإحاطة المكانية والتشبيه بفوقية المخلوقات والحادثات التي توصف بالفوقية كما يقول القائل : جلست فوق الكرسي أو على الكرسي ، فإن أراد القائل بفوقية العرش هذه الفوقية التي تفيد التجسيم والتشبيه والنسبة المكانية والزمانية فهو كفر صريح كما يدل عليه

القرآن الكريم من قوله: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وقوله : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وإن أراد بهذه الفوقية الرتبة والمقام والعلو كما يؤوله البعض أو أراد فوقية لائقة بمقام الله جل جلاله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل كما يقوله البعض الآخر . فلا شك في أنه الإيمان الصحيح الذي قرره أئمة السلف الصالح رضي الله عنهم . والحاصل أن وصف الرحمن بأنه (فوق العرش) مع كونه غير وارد بهذا اللفظ في القرآن أو في السنة الصحيحة المتفق عليها ولا يصح وصف الله سبحانه وتعالى إلا بما جاء عنه بالنص الصحيح الثابت لا بالاجتهاد ولا بالإستنباط .

أقول : هذا الوصف مع أنه لم يرد فإنه يعطي احتمالات متعددة ؛ منها : احتمال الكفر إذا أراد به التجسيم ، ومنها احتمال الإيمان إذا أراد به المعنى الوارد .

ولكن صدور هذا الوصف من مؤمن موحد يوجب علينا أن نحمله على معناه الإيماني الصحيح ، ومثله لفظ : (الله موجود في كل مكان) فهو مع كونه أيضاً يعطي نفس الاحتمالات المتعددة لكن صدوره من مؤمن موحد يوجب علينا حمله على أقرب معانيه إلى التوحيد تحسيناً للظن بالمسلمين ، فكيف بمن يبادر ويتسرع إلى الحكم بالكفر والإخراج عن الإسلام ، ولا شك عندنا في أن المتكلم بهذا

الكلام وغيره من عوام المسلمين الذين يرد هذا اللفظ على ألسنتهم لا يقع في تصورهم أبداً المعنى الكفري والمفهوم الشركي الذي قد يحتمله اللفظ ، بل المقصود منه المعنى العام الذي يتصوره من يقول بالمعية الإلهية وهي معية العلم الحفظ والنصر والتأييد

الاستواء بالاستقرار :

ولا يصح الزيادة على معنى الاستواء باجتهاد أو استنباط ، بل يجب الاكتفاء بما ورد في النص دون زيادة أو نقص لأن الموضوع لا يدخل فيه للعقل والنظر ، وإنما موقف العقل هو التسليم والإيمان بما جاء كما جاء ، كما قال الإمام الشافعي ، وهو من كبار أئمة السلف : آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾.

قال إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - : أجمع المسلمون على منع تقدير صفة مجتهد فيها لله عز وحل لا يتوصل فيها إلى قطع بعقل أو سمع . وأجمع المحققون على أن الظواهر يصح تخصيصها أو تركها بما لا يقطع به من أخبار الآحاد والأقيسة ، وما يترك بما لا يقطع به كيف يقطع به ؟ . (أنظر التعليق على السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل للسبكي ص ٥٨) .

وما نسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله

تعالى ﴿ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ ، استقر على العرش وقد امتلأ به أو صعد إليه أو استوت عنده الخلائق وما إلى ذلك ، فذلك من رواية أبي صالح ومحمد بن مروان الكلبي ، قال البيهقي : كلهم متروك عند أهل العلم بالحديث لا يحتجون بشيء من رواياتهم لكثرة المناكير فيها وظهور الكذب منهم في رواياتهم . قال علي بن المديني : سمعت يحيى بن سعيد القطان يحدث عن سفيان قال : قال الكلبي : قال لي أبو صالح : كل ما حدثتك كذب . وعن سفيان عن الكلبي قال : قال لي أبو صالح : انظر كل شيء رويت عني عن ابن عباس رضي الله عنهما فلا تروه .

وقال يحيى بن معين : الكلبي ليس بشيء . وقال الإمام البخاري : محمد بن مروان الكلبي الكوفي صاحب الكلبي سكتوا عنه ولا يكتب حديثه ألبتة .

قلت : وكيف يجوز أن تكون مثل هذه الأقاويل صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ثم لا يرويها ولا يعرفها أحد من أصحابه الأثبات مع شدة الحاجة إلى معرفتها (الأسماء والصفات مع حذف يسير اختصاراً ص ٤١٣ - ٤١٥) .

قال التابعي الجليل الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى في كتابه (الوصية) : نقرّ بأن الله تعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة واستقرار عليه ، وهو حافظ العرش وغير العرش من

غير احتياج . اهـ . (الوصية وشرحها مطبوعة مع الفقه الأكبر والإبانة وغيرها معاً {ص ٦٢}) .

الاستواء وزيادة لفظ الذات :

كذلك يجب الالتزام بالوارد في صفة الاستواء دون زيادة لفظ (بذاته) فقد سمعنا بعضهم يقول بغير دليل من الكتاب والسنة : إن الله تعالى استوى بذاته فوق العرش ، بدلاً من (استوى على العرش) الثابت بنص القرآن الكريم ، وإن الله بائن من خلقه . ولفظ : بائن من خلقه ، لم يرد في كتاب ولا سنة ، وإنما أطلقه من أطلقه من السلف بمعنى نفي الممازجة رداً على جهم وأتباعه الجهمية لا بمعنى الابتعاد بالمسافة ، تعالى الله عن ذلك ، كما صرح بذلك في الأسماء والصفات ص ٤١٠ .

وأما لفظ (فوق العرش) فلم يرد مرفوعاً إلا في بعض طرق حديث الأوعال من رواية ابن منده في التوحيد ، وفي سنده عبد الله بن عميرة مجهول الحال ، ولم يدرك الأحنف فضلاً عن العباس . (انظر التعليق على السيف الصقيل للسبكي ص ٤٧) .

وقال السلفي الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في مقدمة مختصر كتاب العلو للإمام الذهبي - بعد كلام - ومن هذا العرض تبين أن هاتين اللفظتين (بذاته - بائن) لم تكونا معروفتين في عهد

الصحابة رضوان الله عليهم . ولا في عهد التابعين فإطلاقهما حينئذ محدث .

قلت : ولا في عهد التابعين ولكن لما ابتدع الجهم وأتباعه القول بأن الله في كل مكان ، اقتضى ضرورة البيان أن يتلفظ هؤلاء الأئمة الأعلام بلفظ (بائن) دون أن ينكره أحد منهم . أ هـ ص ١٨ .

قلت لقد رأى أولئك ودون دليل أن سبيل الرد على الجهم الذي حكم عليه بالكفر وقتل عليه والحمد لله هو التلفظ بما يوهم التشبيه والتجسيم في حق الله تعالى والحلول في مكان فقالوا : مستوٍ بذاته وبائن عن خلقه فدفعوا بتعطيل الجهم وتأويله بشيء قريب غير بعيد عن حيث اللفظ من تجسيم محمد بن كرام السجستاني حتى ظهروا كأنهم أولياء على الله تعالى يضيفون إليه ما شاءوا من الألقاب حرصاً على التوحيد، ألا ليتهم سكتوا أو نزّهوا وفوّضوا كما فعل السلف .

قال الإمام التابعي الجليل أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا ينبغي لأحد أن ينطق في الله تعالى بشيء من ذاته ولكن يصفه بما وصف سبحانه به نفسه ، ولا يقول فيه برأيه شيئاً . (إيضاح الدليل ص ٤٤ - ٤٥) .

قال الشيخ الإمام بدر الدين بن جماعة : إذا ثبت ذلك فمن جعل الاستواء في حقه ما يفهم من صفات المحدثين ، وقال : استوى بذاته ،

أو قال استوى حقيقة . فقد ابتدع بهذه الزيادة التي لم تثبت في السنة ولا عن أحد من الأئمة المقتدى بهم ، وزاد بعض المتأخرين فقال : الاستواء مماسته الذات ، وأنه على عرشه ما ملأه ، وأنه لابد لذاته من نهاية يعلمها ، وقال آخر : يختص بمكان دون مكان ، ومكانه وجود ذاته على عرشه ، قال : والأشبه أنه مماس للعرش ، والكرسي موضع قدميه . وقال يحيى بن عمار بل يقول هو بذاته على العرش ، وعلمه محيط بكل شيء . قال الذهبي بعد نقله قول يحيى قولك (بذاته) من كيسك (انظر كتاب العُلوّ الذهبي ص ١٧٨) .

وفي هذا ذكر طامات من كلام بعض المجسمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

قلت : والإمام أحمد بريء مما ينسب إليه من أمثال هذه المنكرات . فمن المنقول عنه أنه كان لا يقول بالجهة للباري تعالى ، وكان يقول : الاستواء صفة مسلمة ، وهو قول بعض السلف رضي الله عنهم . وسئل أحمد عن الاستواء ، فقال : استوى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف ، ذكره الخلال بسنده إليه من كلامه . ([أ هـ] إيضاح الدليل ١٠٨) .

العرش والفوقية :

كذلك يجب الالتزام بالنص والتقيد بالوارد في صفة الاستواء ولا

يصح الزيادة عليها باجتهاد أو استنباط ، وكذلك يجب الاكتفاء والتقيد بما ورد في النص دون زيادة من نص آخر غير صحيح . مما لا تثبت به الأحكام من الحلال والحرام ، فضلاً عن العقائد التي هي أشد خطراً وأعظم رتبة ، فكيف بمن يثبت أموراً في هذا الباب بأحاديث مختلف فيها بين العلماء ، كمن يزيد لفظ (الفوقية على العرش في صفة الاستواء) . فيقول بأنه فوق العرش مع أن لفظ (فوق العرش) لم يرد مرفوعاً إلا في بعض طرق حديث الأوعال من رواية ابن منده في التوحيد ، وقد تقدم أن في سنده عبد الله بن عميرة وهو مجهول الحال ، ولم يدرك الأحنف فضلاً عن العباس .

الاعتماد على الحديث الصحيح دون الضعيف في العقائد :

قال ابن الصلاح في (مقدمة في علوم الحديث) : يجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى . وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما ، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال ، وسائر فنون الترغيب والترهيب ، وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد .

وممن روينا عنه التنصيص على التساهل في نحو ذلك عبد الرحمن بن مهدي ، وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما . (كذا في مقدمة ابن صلاح ص ٤٩) .

وقال الإمام النووي في التقريب : ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد ، ورواية ما سوى الموضوع من الضعيف والعمل به من غير بيان ضعفه في غير صفات الله تعالى والأحكام كالحلال والحرام ، وما لا يتعلق بالعقائد والأحكام . (كذا في تدريب الراوي شرح السيوطي على التقريب ج ١ / ص ٢٩٨) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل في الكلبي : يكتب عنه هذه الأحاديث يعني المغازي ونحوها ، فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا ، يريد أقوى منه . قال البيهقي : فإذا كان لا يحتج به في الحلال والحرام فأولى أن لا يحتج به في صفات الله سبحانه وتعالى ، وإنما نقموا عليه في روايته عن أهل الكتاب ثم عن ضعفاء الناس وتدليسه أساميهم . (كذا في الأسماء والصفات ص ٤١٨) .

ومن العجيب أننا نرى بعضهم ينكر على الناس أموراً بدعوى أنه لم يصح فيها حديث ، فلا يجوز العمل بها ولا الاعتماد عليها مع أن هذا الباب واسع . وللعلماء فيه نوع من التساهل فيما يسمى بالعمل بالحديث الضعيف حسب القواعد المعروفة المقررة في علم الأصول ، والمصيبة الكبرى أن هذا المنكر للعمل بالحديث الضعيف في أبواب الفضائل والمناقب والترغيب والترهيب الذي رخص فيه العلماء ، هذا المنكر لهذا الأمر المرخص فيه نراه يستدل في أبواب العقائد بأحاديث ضعيفة ومتكلم فيها ، كاستدلالهم بحديث الأوعال المتكلم فيه .

وهو في باب العقائد التي يمتنع العمل فيها اتفاقاً بالحديث الضعيف ، بل لابد فيها من الصحيح الثابت إن لم نقل المتواتر . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إذا روينا في الحلال والحرام شددنا . وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا .

وفي رواية عنه : الأحاديث الرقائق يحتمل أن يتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم

قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رضي الله عنه : إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال

وقال الإمام أبو زكريا العنبري : الخبر إذا ورد لم يحرم حلالاً ولم يحلل حراماً ولم يوجب حكماً وكان في ترغيب وترهيب أغمض عنه وتسهل في رواته . (الأجوبة الفاضلة للإمام اللكنوي ، ص ٣٦) .

وقال النووي في كتابه (الأذكار): قال العلماء والفقهاء وغيرهم : يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً ، وأما الأحكام كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك ، فلا يعمل فيها إلا بالحديث الصحيح أو الحسن » اهـ .

وقال الحافظ العراقي في (شرح ألفيته) : أما غير الموضوع فجوّزوا التساهل في إسناده وروايته من غير بيان ضعفه إذا كان في غير الأحكام والعقائد ، في الترغيب والترهيب من المواعظ والقصص وفضائل الأعمال ونحوها ، وأما إذا كان في الأحكام الشرعية من الحلال والحرام وغيرهما أو في العقائد كصفات الله تعالى وما يجوز وما يستحيل عليه ونحو ذلك فلم يروا التساهل في ذلك ،

وممن نصّ على ذلك من الأئمة عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وعبد الله بن المبارك وغيرهم ، وقد عقد ابن عدي في (مقدمة الكامل) والخطيب في (الكفاية) باباً لذلك » اهـ (ج ٢ ص ٢٩١) .

تحقيق مهم في قول الإمام مالك عن الاستواء :

وقد نقل الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه العظيم « الأسماء والصفات » (ص ١٥٠) نصوصاً متعددة تبين موقف الإمام مالك من مسألة الاستواء ، ومالك هو إمام أهل السنة والجماعة وعالم المدينة وأمير المؤمنين في الحديث .

فمنها ما رواه ابن وهب قال : كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال : ياأبا عبد الله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استواؤه ؟ قال : فأطرق مالك ، وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه

فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف . وكيف عنه مرفوع . وأنت رجل سوء صاحب بدعة ، أخرجوه ، قال : فأخرج الرجل .

ومنها ما رواه يحيى بن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فكيف استوى ؟ قال : فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعاً ، فأمر به أن يخرج . وروي في ذلك أيضاً عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أستاذ مالك بن أنس رضي الله عنهما . وروي في ذلك أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها رواه اللالكائي .

قال الحافظ العبدري في (دليله : ص : ٣٦): وأما ما رواه اللالكائي عن أم سلمة رضي الله عنها وربيعة بن عبد الرحمن أنهما قالا : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول فمرادهما بقولهما : غير مجهول أنه معلوم وروده في القرآن ، بدليل رواية عند اللالكائي ، وهي : (الاستواء مذكور) أي مذكور في القرآن . وهذا مراد مالك بما روى ولم يثبت عنه الاستواء معلوم كما هو شائع وذائع على الألسنة ، ولو ثبت لكان مراده ما قلناه وهو أنه مذكور في القرآن ، وأما ما يروى عنه أنه قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة فهذا لم يثبت عن مالك ولا غيره من الأئمة رواية فلا اعتداد به .

جملة من أقوال السلف في الصفات :

قال محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة الثاني رحمهما الله تعالى : اتفق الفقهاء كلهم من الشرق إلى الغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه ، وقال : ما وصف الله تعالى به نفسه فقراءته تفسيره . ذكره اللالكائي في (شرح السنة) .

وذكر البيهقي بسنده إلى إسحاق بن موسى الأنصاري قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : ما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه في كتابه فقراءته تفسيره ليس لأحد أن يفسره بالعربية ولا بالفارسية ، ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن حديث الرؤية والنزول ونحو ذلك قال : نؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى ، (شرح السنة) للالكائي .

قال عبد الملك بن وهب : كنا عند مالك بن أنس رحمه الله تعالى فدخل عليه رجل فقال : ياأبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استواؤه ؟ قال : فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ . كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة ، أخرجوه .

وفي لفظ له رحمه الله تعالى بطريق يحيى بن يحيى : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة

وما أراك إلا مبتدعاً ، فأمر به فأخرج .

وروي ذلك عن ربيعة الرأي أستاذ مالك رحمهما الله تعالى فقال عبد الله بن صالح بن مسلم : سئل ربيعة الرأي عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ قال : الكيف مجهول والاستواء غير معقول ، ويجب علي وعليك الإيمان بذلك كله .

قال البيهقي : أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ قال : هذه نسخة الكتاب الذي أملاه الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب في مذهب أهل السنة فيما جرى بين محمد بن إسحاق بن خزيمة ، وبين أصحابه فذكرها وذكر فيها ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ بلا كيف ، والآثار عن السلف في هذا كثيرة ، وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، وإليها ذهب أحمد بن حنبل والحسين بن الفضل البجلي ، ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي .. إلخ .

وقال الإمام البغوي في (شرح السنة) : أهل السنة يقولون ، الاستواء على العرش صفة لله تعالى ، بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، وذكر خبر الإمام مالك رحمه الله تعالى .

سئل الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى في حديث النزول فقال : ينزل بلا كيف (كذا في الأسماء والصفات ص ٤٥٦ إيضاح الدليل ص ٤٠) .

أعظم دليل على صحة التأويل

ونورد هنا حديثاً صحيحاً هو أكبر حجه على صحة التأويل ، وأن قول من يقول بأن التأويل باطل هكذا بالإطلاق هو أبطل الباطل بل لابد من التفصيل وبيان أن بعض النصوص قد أولها العلماء وبينوا لها معان تخالف ظاهر ما يدل عليه ، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بنفسه حيث قال

« يقول الله عز وجل : ياابن آدم ، مرضت فلم تعدني ، فيقول : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتني عنده ، فيقول : ياابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، فيقول : أي رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول تبارك وتعالى : أما علمت أن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه ؟ أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟ قال : ويقول عز وجل ياابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، فيقول : أي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول أما علمت أن عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه ؟ أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي » لفظ حديث الأشيب ، وفي رواية زيد بن الحباب « فلوعدته لوجدت ذلك عندي » وبمعناه قال في باقي الحديث ، أخرجه

مسلم في الصحيح من حديث بهز بن أسد عن حماد ، وفيه أن ذلك يقوله يوم القيامة .

قال الحافظ أبو بكر البيهقي : واستفسار هذا العبد ما أشكل عليه دليل على إباحة سؤال من لا يعلم من يعلم ، حتى يقف على المشكل من الألفاظ إذا أمكن الوصول إلى معرفته ، وفيه دليل على أن اللفظ قد يرد مطلقاً والمراد به غير ما يدل عليه ظاهره ، فإنه أطلق المرض والاستسقاء والاستطعام على نفسه والمراد به ولي من أوليائه ، وهو كما قال الله عز وجل : ﴿ إنما جزاءُ الذين يُحاربون اللهَ ورسُوله ﴾ وقوله : ﴿ إنّ الذين يؤذون الله ورسُوله ﴾ ، وقوله : ﴿ إنْ تنصُروا اللهَ ينْصركُمْ ﴾ والمراد بجميع ذلك أولياؤه ، وقوله : ﴿ لوجدتني عنده ﴾ أي وجدت رحمتي وثوابي عنده ، ومثله قوله عز وجل : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِنْده فوفّاهُ حِسابَه ﴾ أي وجد حسابه وعقابه اهـ (الأسماء والصفات ١ / ٣٥٠) .

ابن تيمية والتأويل

وقد نقل الشيخ ابن تيمية الذي يتبجح أدعياء السلف باتباعه في إبطال التأويل والمجاز عن السلف تأويلات كثيرة صرف فيها اللفظ عن ظاهره ومن ذلك

معية الله وقربه من خلقه .

لقد حكى ابن تيمية في معية الله وقربه أربعة مذاهب ، وارتضى منها مذهباً واحداً هو المذهب الرابع ونسبه إلى سلف الأمة من أئمة الدين والعلم وشيوخ العلم والعباد كما يقول ابن تيمية نفسه : إنهم آمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة من غير تحريف للكلم وأثبتوا أن الله تعالى فوق سمواته وأنه على عرشه بائن من خلقه وهم بائنون منه وهو أيضاً مع العباد عموماً بعلمه ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية (مجموع الفتاوي ٥ / ٢٣١) .

وبعد أن أسند هذا التأويل إلى السلف عموماً عاد فأسنده إلى الإمام أحمد شيخ المذهب قال : إن حنبل بن إسحاق سأل الإمام أبا عبد الله عن قوله تعالى : ﴿ إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ فقال : علمه عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيئ .

إن لفظا المعية والقرب هنا مصروفان عن ظاهرهما ، والسر في هذا

الصرف هو نفي المماسة الحسية .

وصفوة القول : أن ابن تيمية مقر بالتأويل المجازي وأن لم يسمه مجازاً ، وأنه اتخذ منه وسيلة للدفاع عن سلامة العقيدة وتبرئة ساحة كتاب الله العزيز من المطاعن

وقد حلل ابن تيمية نصوصاً شرعية أخرى على هذا المنوال ، منها قول الخليل عليه السلام : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) . وقوله تعالى : ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ . وقوله ﷺ : « أهلك الناس الدرهم والدينار ، وأهلك النساء الأحمران : الذهب والحرير » .

كل هذه النصوص حللها على أن إسناد الإضلال وزيادة التتبيب وإهلاك الناس والنساء إلى الأصنام والدرهم والدينار والذهب والحرير روعي فيها أن هذه المذكورات أسباب أما الفاعل الحقيقي فهو الله عز وجل .

ابن القيم والتأويل :

اعلم أن المجاز هو أساس التأويل وقاعدته وركيزته الكبرى وبابه الأعظم .

وقد أنكره الشيخ ابن القيم في كتابه (الصواعق المرسلة) لكنه اعتمده وأقرّ به في مواضع متعددة من كتبه وشأنه في ذلك شأن شيخه

ابن تيمية الذي أقر بالمجاز تأويلاً وتصريحاً في مواضع مختلفة من مؤلفاته .

ومعنى هذا أن لابن القيم مذهبين في المجاز : مذهباً متعارفاً مشهوراً هو الإنكار ، ومذهباً غير مشهور هو الإقرار .

والإقرار بالمجاز عندنا هو عين التأويل لأنه صرف اللفظ عن ظاهره لأي سبب من الأسباب المجازية وهو التأويل .

قال الدكتور عبد العظيم المطعني : وكانت أدلتنا على إقرار الإمام ابن تيمية بالمجاز ثلاثة :

الأول : تأويلات مجازية نقلها عن بعض السلف ثم ارتضاها مذهباً له في نصوص قرآنية .

الثاني : تأويلات مجازية استأنفها هو استئنافاً من عند نفسه .

الثالث : ورود المجاز في حر كلامه مع الرضا به وأعماله في توجيه مشكلات نشأت عن صعوبة الأخذ بظواهر نصوص مقدسة كما اتخذ من المجاز وسيلة للدفاع عن الأئمة الأعلام ومواقفهم من الحديث النبوي الشريف وقد تقدم هذا كله في إيجاز : أما الإمام ابن القيم فلنا على مذهب الإقرار بالمجاز عنده دليلان : إضافيان لا يتطرق إليهما شك ، وهما :

الأول : تأويلات مجازية مستفيضة وردت في كتبه غير الصواعق

الثاني : ورد المجاز صريحاً في جر كلامه وهو في هذين الدليلين أطول باعاً وأكثر لهجاً من شيخه الإمام ابن تيمية رضي الله عنهما وعلى هذا الأساس يدور الحديث

التأويلات المجازية :

تتبعت التأويلات المجازية عند العلامة ابن القيم وأرجعنا كثيراً منها إلى أصولها البلاغية فوجدناها موزعة على جميع أنواع المجاز ، فكان منها :

تأويلات مجازية من قبيل المجاز العقلي .

وتأويلات مجازية من قبيل المجاز اللغوي المرسل .

وتأويلات مجازية من قبيل المجاز اللغوي الاستعاري [1] .

---

(١) المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار ص ٢٤ للدكتور عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

الصفات تفسيرها السكوت عنها

تفسير السلف للصفات

وقد سئل ربيعة الرأي عن قول الله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ قال : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول ، ويجب علي وعليك الإيمان بذلك كله ، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني محمد بن يزيد ، سمعت أبا يحيى البزار يقول : سمعت أبا العباس ابن حمزة يقول : سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول : سمعت سفيان بن عيينة يقول : كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه .

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ . قال شيخنا أبو العباس رحمه الله تعالى : متبعوا المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك في القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن ، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية ، حتى اعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وإصبع ، تعالى الله عن ذلك ، أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلها وإيضاح معانيها ، أو كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر

فيه السؤال ، فهذه أربعة أقسام :

الأول : لا شك في كفرهم ، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة .

الثاني : الصحيح القول بكفرهم ، إذ لا فرق بينهم وبين عُباد الأصنام والصور ، ويستتابون ، فإن تابوا ، وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتد

الثالث : اختلفوا في جواز ذلك بناء على الخلاف في جواز تأويلها وقد عرف بأن مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها ، فيقولون أمرّوها كما جاءت ، وذهب بعضهم إلى جواز تأويلها وحملها على ما يصح حمله في اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل عنها .

الرابع : الحكم فيه التأديب البالغ . كما فعله عمر رضي الله عنه بصبيغ (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤ / ١٥ - ١٦) .

سأل الزمخشري أبا حامد الغزالي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ .

فأجابه بقوله : إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينية فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بأين أو كيف وهو مقدس عن الأين والكيف ، ثم جعل يقول :

قل لمن يفهم عني ما أقول ... قصر اللوم فذا شرح يطول

ثم سر غامض من دونه ... ضربت - والله - أعناق الفحول

أنت لا تعرف إياك ولا ... تدري من أنت ولا كيف الوصول

لا ولا تدري صفات ركبت ... فيك حارت في خفاياها العقول

أين منك الروح في جوهرها ... هل تراها فترى كيف تجول

وكذا الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدري متى عنك تزول

أين منك العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لي ياجهول

أنت أكل الخبز لا تعرفه ... كيف يجري منك أم كيف تبول

فإذا كانت طواياك التي ... بين جنبيك كذا فيها ضلول

كيف تدري من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول

كيف يحكي الرب أم كيف يرى ... فلعمري ليس ذا إلا فضول

فهو لا أين ولا كيف له ... وهو رب الكيف والكيف يحول

هو فوق الفوق لا فوق له ... وهو في كل النواحي لا يزول

جل ذاتاً وصفات وسمى ... وتعالى قدره عما تقول

المعية الإلهية

تقدم في بيان عقائد القوم رضي الله عنهم ، أنهم يؤمنون بكل ما نسب الحق عز وجل إلى نفسه من غير تكييف ، لا على الوجه المعروف في الحوادث ، فكما أن ذاته لا تشبه شيئاً من الذوات فصفاته تعالى لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقات ، ولا فعله يشبه فعل الخلق ، وهذا أمر متفق عليه ليس بين المسلمين فيه خلاف .

وبيّنّا أن الفعل إذا نسب للحق تجرد عن الزمان ، فيريد ويشاء إذا نسبت للخلق دخلها الحال والاستقبال ، وإذا نسبت إلى الحق زال منها الزمان فلا حال ولا استقبال لأنها نسبت إلى خالق الزمان ، فهي إرادة مطلقة أزلية أبدية غير مقيدة بالزمان .

وكذلك الظرف إذا نسب للحق زالت منه الظرفية لأنه تبارك وتعالى خالق الظروف والأمكنة ، فكان قبل الأمكنة بلا مكان ، وجلّ سبحانه عن أن يتغير ويتبدل ، فلم يكن سبحانه فاقداً لكمال حتى يفيد من وجود المخلوقات ذلك الكمال ﴿ سُبحانَ رَبكَ ربِّ العزةِ عَما يَصِفُون ﴾ .

فإذا سمعت قوله تعالى : ﴿ ءأمِنْتُم مَن في السَّماءِ ﴾ فالأصل في لفظة (في) أنها إذا نسبت إلى ما يجوز عليه الظرفية كانت

لا يجوز عليه الظرفية انتفت عنها معنى الظرفية ، وإذا نسبت إلى من لا يجوز عليه الظرفية انتفت عنها الظرفية فكانت بالمعنى المنزه اللائق بالمنزه سبحانه ، ومتى عرفت أن ذاته تعالى ليست بجسم ولا تشبه الأجسام في سائر صفاتها أيقنت أنها ليست بالمعنى الجسماني ، وإنما هي بمعنى آخر يليق بالذات الأقدس . وعرفت أن قوله ﷺ « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا » وقوله تعالى ﴿ وجاء ربك ﴾ هو نزول ومجيء إلهي بعيد عن كل وصف في النزول والمجيء المعروف في الأجسام

ومن الناس من أثبت للحق سبحانه المعية المعروفة في الجسمانيات ، وهذا يلزمه الحلول والتجسيم ، ومثبته لا خلاف بين علماء المسلمين في كفره ، ويعتقدون أنه سبحانه حال في كل مكان كحلول الماء في العود والروح في الجسد ، وهذا ضلال بيّن ، وهو سبحانه كان قبل كل شيء بلا مكان ، وهو على ما عليه كان ، منزه عن التغير والتبدل ، وأن يحل في مكان أو يتجسد أو يتحد بمخلوق .

وأراد آخرون أن ينزهوه عن هذا القول ، فوصفوا فوقيته على كل شيء بالوصف الجسماني ، فحيزوه في ناحية من الكون ، فوقعوا فيما فروا منه ، ويقولون : قال فلان : هو فوق كل شيء بذاته ومع كل شيء بعلمه ، وهل علمه ينفصل عن ذاته ، وهل (بذاته) وردت في آية من كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ ؟ لم ترد ، ولماذا قلدوه في العقيدة ؟ وهل في العقائد تقليد ؟

والأصل في ذلك أنهم لم يقطعوا بأن الحق منزه عن الجسمية ، ولو نزهوه عنها لسقطت جميع لوازم الجسمية من خيالاتهم .

وبيان ذلك أنك إن فرضت أن فوقية الذات على العرش هي الفوقية المعروفة فيما نشاهد ، فلا يسعك إلا أن تربط بينها وبين المجيء والنزول اللذين نسبا للحق في الكتاب والسنة ، فتقول : إنهما كذلك المجيء والنزول المعروف لنا كما نشاهد .

فإذا جاء ونزل إما أن تقول إنه مازال على الفوقية المعروفة فتكون قد نفيت النزول المعروف ، فإنه لا يوجد شيء من الأجسام يكون فوق شيء فينزل ، ولا يزال على فوقيته ، فكأنك قلت ينزل ولا ينزل ، وهذا هو الجمع بين الضدين ، وهو محال .

أو تثبت المجيء الحقيقي المعروف فتكون قد أزلت عنه الفوقية المعروفة .

فإن أولت المجيء والنزول وقلت بالفوقية المعروفة فقد افتضحت ، وإن أولت الفوقية وقلت بالمجيء المعروف فقد افتضحت .

وإنما يلزم التناقض من ظن أن فوقيته سبحانه الفوقية الخلقية ، ونفى عنه الفوقية الإلهية التي لا تشبه بوجه فوقية الخلق ، وظن أن المجيء هو المجيء الخلقي ونفى عنه سبحانه المجيء الإلهي المنزه ، وهذا هو الضلال البين الذي يشبه تناقض الكفار القائلين ثلاثة هي واحد وواحد هو ثلاثة في وقت واحد .

ولا ندري ما الذي دها عقولهم حتى حملوا النصوص على الفوقية التي تجامع فوقية الخلق ، وقد نفاها الشرع والعقل ، مع أن الباحثين في المادة حتى الملاحدة بدأوا يغيرون رأيهم في الأجسام المادية ويردونها إلى أصل غير الأجسام . وقد قرر بعضهم : أن الأثير نصف مادي .

فالمؤمنون أولى بترك الجمود الجسماني .

والمجيء والفوقية والمعية المادية مكيفة ، أما غير المادية فلا نتطرق لها بكيف ، وهذه هي السلفية الصحيحة

ولماذا لم يحملها هؤلاء على الفوقية المنزهة التي تفارق فوقية الخلق وكذا النصوص التي تعني ذلك .

وكذلك المجيء وغيره ، وبذلك يخرجون من التناقض الذي هو آية ضعف التفكير ، وديننا هو الدين الواحد الذي لم ينفك دين غيره عن التناقض والتهافت .

والتحقيق العلمي في ذلك أن الحق سبحانه ليس بجسم فما نسب إليه ليس بجسماني ، فهي فوقية ليست بجسمانية .

ونزول ليس بجسماني ، ومجيء ليس بجسماني ، ومعية ليست بجسمانية .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أما الإحاطة الحادثة فهي كإحاطة السوار بالمعصم ، والإحاطة الإلهية منزهة عن أن تشبه الإحاطة الحادثة .

وقرب الحق من عباده ثابت ﴿ وَنَحنُ أقربُ إليهِ مِن حَبْلِ الوريد ﴾ أقرب إليهم من أنفسهم ، فإنه سبحانه قيومهم ، لا يشاءون إلا أن يشاء ، هو الذي يتصرف فيهم كيف يشاء ، ولا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

القرب المنزه عن جميع صفات القرب الحادث :

سبحانك أين كنت أي حيث كنت ولا مكان ، وأين تكون كما كنت ولا مكان . وحديث الترمذي أنه سئل ﷺ أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق ؟ قال كان في عماء اهـ . والعماء غيب ، وقد فسره السلف أي ليس معه شيء ، وهو الموافق لما جاء في الأحاديث الصحيحة .

فليس هناك أي جمع بين ضدين ولا نقيضين .

ومن الجهل المركب أن يقول بعض الضالين : إما أن يكون داخل الكون أو خارجه ، ويزعم الجاهل الكاذب على ربه أن نفيهما معاً وصف له بالعدم ، وهو منتهى الغباء ، وهو دليل على أنه مجسم ضال . فإن ذلك لا يلزم إلا في التجسيم ، فإننا ننفي عنه سبحانه دخوله في الكون الدخول الجسماني ، وننفي عنه سبحانه خروجه عن الكون الخروج الجسماني ، ونثبت له سبحانه الفوقية الإلهية والقرب الإلهي والإحاطة الإلهية المنزهة عن الصور الجسمانية بسائر أوصافها من حلول واتحاد وتداخل وامتزاج ومكان ومسافة ، فإن ذاته منزهة عن الجسمية ولوازمها فوصفه منزه عن ذلك كله .

ونسلم الأمر لله حقاً ونفوضه له صدقاً ، لا تفويض المنافقين الذين يحرمون التقليد في الفروع وهم مقلدون في العقائد لقوم لا يجدون مضاضة في مخالفتهم في الفروع ، فسبحان الله .

أولئك الذين يظهرون التفويض زوراً ويبطنون التجسيم الوثني الذي جاء الإسلام بتحطيمه

واعلم أن من لم تزل آثار التجسيم من قلبه فما زالت آيات الوثنية فيه فإنه سبحانه ليس كمثله شيء من جميع الوجوه . آمنا بما أنزل الله على مراد الله . وهذه هي عقيدة السلف الصالح قاطبة لا تكييف ولا تشبيه

أيــن اللــه ؟

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية ، فاطلعت ذات يوم ، فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها ، وأنا رجل من بني آدم ، آسف كما يأسفون ، لكني صككتها صكة ، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علىّ ، قلت : يارسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : ائتني بها ، فأتيته بها ، فقال لها : أين الله ؟ قالت في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : أعتقها فإنها مؤمنة . (رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة في باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة) .

قال في المشكاة : ورواه مالك في كتاب النكاح باب في كون الرقبة في الكفارة المؤمنة .

وعن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال : يارسول الله إن علىّ رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة فأعتقها . فقال لها رسول الله ﷺ : أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ قالت : نعم ، قال : أتشهدين أني رسول الله ؟ قالت : نعم ، قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟ قالت نعم ، قال : أعتقها .

(رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية ، فقال : يارسول الله إن عليّ رقبة مؤمنة ، فقال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ فأشارت برأسها إلى السماء بأصبعها السبّابة ، فقال لها رسول الله ﷺ : من أنا ؟ فأشارت بأصبعها إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء ، أي أنت رسول الله ، قال : أعتقها ، (رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط) .

إلا أنه قال لها : من ربك ؟ فأشارت برأسها إلى السماء ، فقالت : الله . ورجاله موثقون .

(ا هـ مجمع الزوائد ج١ ص ٢٣ كتاب الإيمان ، باب فيمن شهد أن لا إله إلا الله) .

هذا الحديث الشريف تمسك به من يقول بالجهة مع العلو والفوقية وهو خلاف مذهب عامة أهل السنة والجماعة القائلين بالعلوّ والفوقية النافين للجهة ، لأن الجهة فيها إثبات النسبة المكانية ولا تحتمل المجاز بخلاف العلو والفوقية ، أما العلو فإنه يحتمل العلو المكاني كقولك : الكتاب على الكرسي ، ويحتمل علوّ الرتبة كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُسُل فضّلنا بعضَهم على بَعْض ﴾ ، وأما الفوقية فإنها تحتمل الفوقية المكانية التي هي التجسيم بعينه ، كقولك : الكتاب فوق الكرسي ، ويحتمل الفوقية الرتبية التي تدل على الفضل ورفعة المقام كقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللّه فَوق أيدِيهِمْ ﴾ ، وجمهور أهل السنة

والجماعة يثبتون العلو للعَليّ الغفار ، ويثبتون الفوقية له سبحانه وتعالى ، ولكنهم لا يقولون بالجهة المقتضية إثبات الجسمية والنسبة المكانية وهي قطعاً من صفات الحوادث بلا شك ولا ريب .

إذا علمت هذا فاعلم أن السؤال عن الله بأين ليس من أصول التوحيد ، نعم ، إنّ إثبات الاستواء له وإثبات العلوّ والفوقية اللائقة به هو ما صرح به القرآن الكريم ، وهو الوارد عن السلف ، لكن السؤال عنه بأين ليس من أصول الدين ، بل وينافي كمال التنزيه المطلوب ، وليس هو مقياس صحيح معتبر للكشف عن حقيقة الإيمان ولإجراء أحكام الإسلام وترتيب ما يترتب على ذلك من حقوق وحرمات .

إن المقياس الصحيح المعتبر للكشف عن حقيقة الإسلام أخبر عنه نبينا محمد ﷺ حين قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله » ، وبقوله : « من قال لا إله إلا الله صادقاً حرمه الله على النار » ، فإذا قال القائل : لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد أعطى البيان الصحيح الكافي عن معتقده ، واعتصم بحماية الدين ودخل في حصن حصين .

وكان ﷺ قبل أن يحارب الأعداء ينتظر هل يسمع أذاناً من قبلهم ، فإذا سَمِعَ كف عنهم ، ولم يكن من سنته في معاملة الأمة أن يسألهم عن مكان الله بعد إقرارهم بكلمة التوحيد ، ولم يقل أنه ينبغي

لهم أن يقرّوا بعد ذلك أو مع ذلك بأن الله في السماء ، أو يجب أن نسألهم أين الله ؟ .

هذا مع أنه ثبت من طرق أخرى أن السؤال وقع بغير هذا اللفظ وهو قوله : (أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟) وقوله في رواية أخرى : (من ربُّك ؟) .

وبهذا تعلم أن استدلال بعضهم بهذا الحديث على أن لله مكاناً أو أنه سبحانه متحيّز في جهة استدلالٌ معلول ساقط ، والقول به باطل ، فقد اتفقت كلمة أهل السنة والجماعة على وجوب تنزيه الحق عن الجسمية ، فهو سبحانه منزه عن الأطوال والأبعاد ، ولا خلاف بين المسلمين في ذلك حتى الكرامية المجسمة عندما قالوا بالجسمية قالوا هو جسم لا كالأجسام ، وهذا تناقض أو نفاق ، فإنهم إن أثبتوا الجسمية بحقيقتها المعروفة عند الإطلاق والمتعارف عليها لفظياً بين أهل اللغة فإنهم يثبتون جسماً له طول وعرض وعمق ، فإن نفوا عنه الطول والعرض والعمق كان تناقضاً ، وهؤلاء هم الذين اختلف العلماء في كفرهم وإن لم ينفوه وإنما نفوا أن يكون كالأجسام من حيث أوصاف أخرى لم ينفعهم النفي لأنهم جعلوه فرداً من أفراد الأجسام يشمله حد الجسم فيكون فرداً من كلّي . وهؤلاء الذين لا خلاف بين محققي العلماء في كفرهم لأنهم مشركون .

وكذلك قد اختلف العلماء فيمن نسب إليه سبحانه وتعالى الجهة

الفوقية المعروفة التي تقابل التحتية ، ولما كانت الجهة فرع الجسمية فإن الجسم ذو ستة سطوح ، فإذا وضع الجسم بإزاء جسم آخر أو أجسام نشأ عن هذا الوضع الجهات الست : فوق وتحت ويمين ويسار وأمام وخلف ، والجهات اعتبارية قد تتغير بتغير الوضع والاعتبار ، فمن أثبت الجهة للحق سبحانه لزمه القول بالجسمية ، فإن التزم الجسمية وقال بها فلا خلاف بين العلماء في كفره ، ومن نفاها فقد تناقض فإنه بالقول بالجهة أثبت الجسمية ، وقد نفاها في آن واحد حيث صرّح بنفي الجسمية .

وهؤلاء هم الذين اختلف العلماء في كفرهم رجوعاً إلى القاعدة ، هل لازم المذهب مذهب وإن لم يلتزمه صاحبه، أو ليس بمذهب ؟

أما من نسب للحق سبحانه أنه تحت الأشياء فهو كافر بالإجماع حيث لا شبهة له .

حديث الجارية :

أما حديث الجارية الذي فيه أنه ﷺ سألها أين الله ؟ . فقالت : في السماء ، قال : فمن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : أعتقها فإنها مؤمنة . فقد قال شيخنا الشيخ محمد الحافظ : إن كلمة الوفاق بين علماء المسلمين قاطبة من أهل السنة سلفاً وخلفاً أن أين الله - بفرض أنها وردت كذلك - ليس معناها أن الله تبارك وتعالى له مكان ، والرسول ﷺ يسأل عن المكان الذي هو متحيز فيه ، ولا خلاف

في أن ذلك باطل مردود ، فإنه سبحانه خالق الأكوان بما فيها المكان ، ووجوده سابق عليها ، وكان قبل الأمكنة بلا مكان ، وجل سبحانه عن أن يتغير أو يتبدل ، فلما خلق المكان فهو هو سبحانه على ما عليه كان ، غنيٌ عن المكان والأكوان .

وحيث إن من الكافرين من يعتقد أن الحق جالس على العرش في السماء ، الجلوس المعروف ، وقال المسيحيون إنه أصعد ولده فأجلسه بجواره على العرش (انظر أناجيلهم) ، فإذا سألت أحدهم : أين الله ؟ فيجيب : في السماء ، لا يدل على أنه موحد له ، فلا يزال على كفره في اعتقاد الولد له ، سبحانه عما يقول الضالون .

وعلى فرض صحة التبين أن الرسول ﷺ إنما كان يسألها سؤالاً يفيد جوابه نفي الشرك ، وحيث إن السؤال بأين الله ، بمعنى السؤال عن المكان والجواب في السماء ، لا يفيدان نفي الشرك ، فنحن نجزم بأن هذا السؤال لم يصدر منه ﷺ على هذا الوجه ، فإن صح في اللغة أين الله بمعنى تعيين المعبود لا تعيين المكان ، كان ذلك هو المقصود . كما يسأل ولداً عن أبيه مثلاً وهو لا يعرفه : أين أبوك ؟ من هؤلاء القوم ؟ وهو لا يريد أن يسأل عن مكانه ، وإنما يريد أن يعينه له ، فالجواب هذا أبي .

وروي أن الحق سبحانه وتعالى ينادي يوم القيامة :

(أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

ومعنى هذا : يامن كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع هلموا قوموا ، وبدهي أنه ليس سؤالاً عن مكانهم .

وقد ورد أنه ﷺ سأل حصيناً : كم إلهاً تعبد ؟

قال : ستة في الأرض وواحداً في السماء ، فمثل هذا إن سأله سائل : أين الله ؟ فسيقول : في السماء ، ولا يزال على كفره وشركه ، ولا يدل السؤال والجواب على أنه مؤمن ، وإنما السؤال الذي يدل جوابه على التوحيد ، كأن يقول لها من ربك ؟ أو من تعبدين ؟ فتقول : الله ، أو أعبد الله ، وقد قال ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » ، ولم يقل ﷺ : حتى يقولوا إن الله له مكان في سماء .

وحيث إن المرويات قد تكون باللفظ ، وقد تكون بمعنى ما فهمه الراوي فاحتمال تصرفه في اللفظ وارد وقوي (وإن كان في الصحيح سيما وأنه قد صح بلفظ (من ربك ؟) . ولما كان هذا هو السؤال الذي يعين التوحيد . فنحن نجزم بأن أفصح الخلق الذي أوتي جوامع الكلم لا يصح أن يسأل - وهو يريد معرفة توحيد الجارية - سؤالاً يريد به وجهاً لا يعين التوحيد لكن لما كانت الجارية أعجمية لا تحسن العربية خاطبها النبي ﷺ على قدر فهمها بقوله : أين الله ، ولما كان التعبير بالقول عن الإشارة شائع في اللغة والعرف استعانت الجارية في جوابها بالإشارة لا بالعبارة ، ولما كان شأن المتكلم بالاشارة أن يستعين

على تصوير ما يريد إفهامه من الأمور المعنوية بالمحسومات لم يستدل ص بجوابها على أنها كانت تعتقد الجهة فضلاً عن أنها محددة . ونرد فهم من يُنسب إلى رسول الله ﷺ ذلك ونعتبره وهماً وسوء فهم .

توحيد الألوهية والربوبية متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر

اعلم أن التوحيد الذي جاءت به المرسلون وبينه خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام أتم بيان ، ونطق به القرآن ، وبرهن عليه أسطع برهان ، هو أنه تعالى واحد في ذاته ، واحد في صفاته ولا خالق سواه ولا يستحق العبادة إلا هو ، والكلمة الطيبة « لا إله إلا الله » تتضمن أقسام التوحيد كلها ، وقد أحسن البيهقي بيان ذلك في كتابه (الأسماء والصفات) فيما نقله عن أبي عبد الله الحليمي . أما وحدانيته في ذاته سبحانه فمعناها أن ذاته العلية لا تتركب من أجزاء مادية ولا عقلية ، ولا من أصول غير مادية ، فلا تحوم حول حماها المقادير والمساحات والأشكال ونحوها . وقد برهنه القرآن ببيان أن له سبحانه الغنى الأكمل ووجوب الوجود ، والتركب في الذات واتصافها بالمقدار ولوازمه يستلزمان الحاجة إلى الغير والافتقار إلى السوى ، وينافيان وجوب الوجود ، ويقتضيان الاتصاف بالإمكان ، تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ، فهو واجب الوجود ، وهو الأول والآخر ، وهو الغني الحميد . وأما أنه واحد في الصفات فهو أنه سبحانه لا ثاني له في وجوب الوجود ، وما يستلزمه من الكمالات العليا اللائقة بمرتبة وجوده الأعلى : من الحياة ، والعلم ، والإرادة والقدرة ، وإذا قد ثبتت

وحدانيته فيما ذكر ، لزم أنه لا خالق سواه ولا رب غيره ، وإذا بان أنه لا خالق سواه ثبت قطعاً أنه لا يستحق العبادة غيره ، فإن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية - أي استحقاق العبادة - متلازمان عرفاً وشرعاً ، فالقول بأحدهما قول بالاخر ، والإشراك في أحدهما إشراك في الاخر ، فمن اعتقد أنه لا رب ولا خالق إلا الله ، لم ير مستحقاً للعبادة إلا هو ، ومن اعتقد أنه لا يستحق العبادة غيره كان ذلك بناء منه على أنه لا رب إلا هو ، ومن أشرك مع الله غيره في العبادة كان لا محالة قائلاً بربوبية هذا الغير ، هذا ما لا يعرف في الناس سواه ، فإن من لا يعتقد له ربوبية استحال أن يتخذ معبوداً ، ولهذا تجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن أرسلهم جل جلاله يكتفون في الدعوة إلى التوحيد بأحدهما ، ويضعون كلاً منهما موضع الآخر ، اكتفاء بشدة التلازم بينهما في العقول ، وأن القول بتوحيد الربوبية هو إقرار بتوحيد الألوهية وبالعكس ، وإليك البينات من القرآن والسنة : قال تعالى : ﴿ وإذْ أخَذ ربُّكَ مِن بني آدمَ من ظهورهم ذُرِّيتهم وأشهدهم على أنفُسهم ﴾ فماذا كانت صيغة العهد بنص القرآن ؟ هكذا : ﴿ الستُ بربكم ﴾ ولم يقل بإلهكم ، وجعله سبحانه حجة على من أشركوا به في العبادة حيث قال : ﴿ أن تَقُولُوا يوم القيامة انّا كنّا عن هذا غافِلين . أو تَقُولُوا إنما أشْرَكَ آباؤنا مِن قبْل ﴾ الآية .

ألبس هذا صريحاً في أن أخذ العهد بتوحيد الربوبية هو أخذ

للعهد بتوحيد العبادة ؟ هذا ما لا خلاف فيه بين العلماء من زمن الصحابة إلى عهدنا هذا .

موقف نبي الله نوح عليه السلام :

ماذا قال نبي الله نوح لقومه الوثنيين ؟ ﴿ فَقُلْتُ استَغْفِروا ربَّكُمْ ﴾ ، وأقام لهم البرهان على توحيد الربوبية ، لما تقرر في عقول الناس أنها لا تعبد غير الله إلا إذا أشركت هذا الغير في الربوبية ، فإذا انمحى عنها هذا الإشراك تبعه التوحيد في العبودية .

موقف نبي الله إبراهيم عليه السلام :

ماذا قال إبراهيم لذلك الذي حاجّه في ربه ؟ قال : ربي الذي يحي ويميت ، وقال عليه السلام لقومه تنزلا معهم ليهديهم إلى الحق : هذا ربي ، هذا ربي ، ولم يقل : إلهي ، وكان نهاية الحجة أن قال : ﴿ إنِّي وجَهتُ وجْهِيَ للذِي فَطَر السَّموات والأرْض ﴾ ، وما هذا إلا توحيد الربوبية المستلزم في كل عقل إذا سلمه توحيد الألوهية .

وقال الخليل عليه السلام أيضاً لعباد الأصنام : ﴿ بَلْ رَبكُم رَبُّ السموات والأرْض الَّذي فَطَرَهُنَّ ﴾ الآية ، أليس هذا إضراباً إبطالياً لما اعتقدوه من ربوبية الأصنام ؟ وأقام الدليل الحسي عليه السلام على عجز الأصنام بتكسيره إياها بياناً لعابديها أنها لو كانت أرباباً كما اعتقدوا لاستطاعت الدفع عن نفسها ، فإذا بطلت ربوبيتها

موقف نبي الله موسى وهارون عليهما السلام :

ولما قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون : أنا رسول رب العالمين جرت بينه وبينهما محاورة تتعلق بالربوبية والألوهية ذكرتها هذه الآيات بالتفصيل وهي قول الله تعالى حكاية عن فرعون وموسى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . وقال فرعون مرة : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ وقال أخرى : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

موقف نبي الله عيسى عليه السلام :

ويقول الله لعيسى ابن مريم : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؟ ، فيقول بعد كلام حكاه عنه التنزيل : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ، فلو كان توحيد الربوبية لا يستلزم عندهم توحيد الألوهية كما زعم بعضهم ، لتوجه على المسيح عليه السلام أن يقال له : ما أديت رسالتنا فإنا إنما أرسلناك بتوحيد الألوهية ، ولم نكلفك ببيان توحيد

الـربوبيـة لأنهم مقرون به ، ولكنا نرى الله تعالى قد قبل منه هذه الحجة ، أفلا يكون في ذلك على ما نقول أبين حجة ؟ وعنه عليه السلام في موضع آخر من الكتاب العزيز : ﴿ وإنّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ بفاء التفريع والترتيب المفيدة للاستلزام ، ويقول القرآن فيما أمر به الرسول الأعظم تارة : ﴿ قُلْ أغيْرَ الله أتّخذُ وليا ﴾ أي معبوداً . وأخرى ﴿ قُلْ أغيْرَ الله أبْغي ربّاً وهُو ربُّ كلِّ شيء ﴾ .

سؤال الميت في القبر :

حديث المسألة في القبر الذي يكاد يبلغ حد التواتر المعنوي مشهور ، وفيه أن الملكين يقولان للميت : من ربك ؟ ولا يقولان : من إلهك ؟ فإذا أجابهما : « الله ربي » اكتفيا منه في التوحيد بهذا الجواب ، ولم يقولا له : هذا توحيد الربوبية ، وهو لا ينجيك .

فأول ما خاطب الله الأرواح : ﴿ ألسْتُ بِرَبِّكُم ﴾ . واكتفى منهم بالإقرار بوحدانيته في الربوبية ، وأول ما تسأل الموتى في قبورها : من ربك ؟ واكتفى منهم بالإقرار بأنه ربهم ، أفبعد هذا يشكك متشكك ؟ ولكن الله يهدي لنوره من يشاء .

تقرير قرآني في المسألة :

وقد رتب القرآن اللوازم الفاسدة على نفي الوحدانية في الألوهية بياناً منه تعالى أن الشركة في الألوهية تستلزم الشركة في الربوبية

عند المشركين لا محالة ، تعالى الله أن يكون له شريك ، فانظر ماذا قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ومعناه عند أولى النهى : أنه لو كان معه إله لكان رباً وخالقاً ، ولو كان معه ذلك لذهب .. إلخ ، وإنما يكون الدليل تاماً إذا صحت الملازمة وكانت مسلمة عند المخاطبين ، ويأبى الله أن يكون حجته إلا تامة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ ومعنى هذا أن القرآن يقرر أن من أشرك في استحقاق العبادة كان مشركاً لا محالة في الربوبية ، وكذلك قال تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ولم يقل: أرباب ، لتلازم الربوبية والألوهية نفياً وإثباتاً .

وتقرير هذا البرهان الشريف يطلب في كتب العقائد ، وخلاصته انه لو كان معه شريك في الألوهية لكان شريكاً في كونه رباً وخالقاً ، ولو كان كذلك لكان شريكاً له في وجوب الوجود ، ولو كان ذلك كذلك لفسدت العوالم ، ولما كان لها نظام ، بل ما كان لشيء منها وجود .

الخلاصـة :

وبهذا يتضح لك جلياً أنه لاخفاء على من تدبر كتاب الله في أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان في نظر العقل والشرع ، فالقول بأحدهما قول بالآخر ، وانتفاء أحدهما في اعتقاد من اعتقد الانتفاء قول منه بانتفاء الآخر ، والبرهنة على أحدهما هو استدلال

على الآخر ، والقول بأن المرسلين عليهم الصلاة والسلام ما جاءوا بتوحيد الربوبية لأن الناس كانوا في غنية عن بيانه ، وما جاءوا إلا بتوحيد العبادة - احتجاجاً ببعض الآيات التي لم يحسنوا فهمها - قولٌ تكذبه نصوص الكتاب العزيز ، ودعوى يدحضها العلم بتاريخ المشركين قديمه وحديثه ، ما حكاه الكتاب العزيز من ذلك وما علمه الناس ، هؤلاء المفتتنون بفتنة السامري من بني إسرائيل أشركوا العجل في عبادة ربهم ، فقال لهم نبي الله هارون بصيغة الحصر ﴿ وإنَّ ربكُمُ الرحمنُ ﴾ يعني لا هذا العجل ، فهل يصح منه عليه السلام هذا الكلام إلا إذا كان إشراكهم في العبادة مبنيا على الإشراك في الربوبية ؟

فتبين أن القول بخلاف هذا معاندة للحق ، وانقياد لمحض الهوى ، وصح أن سائلاً سأل ﷺ عن وصية موجزة كافية لا يسأل بعدها أحداً غيره ، فقال له : بأبي هو وأمي ، عليه الصلاة والسلام - (قل : ربي الله ثم استقم) فلو كان كما يقول ذلك المفرق بين التوحيدين الذي استحلت بناءاً على فتياه هذه دماء لا تحصى ، حقنها الإسلام وحرمها الله ورسوله ، لكانت هذه الوصية غير كافية لا مؤدية لما جاء به المرسلون ، وحاشاها من ذلك ، كذلك قال تعالى : ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ الآية ، وهذه العبارة في موضعين من كتاب الله تعالى في سورة (حم السجدة وسورة الأحقاف) . وقد رتب السعادة كلها على الإستقامة المبنية على قول : ﴿ ربُّنا الله ﴾ دون أن

يقول إلهنا ، فهل بعد الله ورسوله لأحد من قول ؟ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فليحذر المسلم من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وهجوم المنكرين الذين لا هم لهم إلا التشنيع على جماهير المسلمين وتكفيرهم ونبز أكابرهم من العلماء العاملين وأهل السنة المحققين ، بأنهم أئمة الكفر والهادمون للإسلام ، والمنابذون للسنة والقرآن ، والخائنون لدين الله إلى أشباه ذلك مما يعبس له وجه الإسلام وتغضب له الحقائق ، ويلقي بذور الشقاق بين الأمة ، التي وحد الإسلام الصحيح بينها ، وأوصى الإسلام أهله بالمحافظة عليها - أعني تلك الوحدة - فنسأل الله الكريم بنبيه العظيم نبي الرحمة أن يلهم جميع الأمة الرشد حتى تجتمع ولا تتفرق وتتحاب ولا تتباغض . إنه ذو الفضل العظيم[1] .

(١) انظر فرقان القرآن للشيخ سلامة العزامي.

ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى

هذه الآية من النصوص التي يستدل بها البعض على مرادهم المردود وفهمهم الخاطئ وتصورهم الفاسد فيطبقونها على كل من توسل بالنبي ﷺ أو بالأولياء والصالحين من هذه الأمة المحمدية ، وعلى كل من تبرك بهم أو بآثارهم الحسية والمعنوية ، وعلى كل من عظمهم واحترمهم ، زاعمين أن زيارة المسلمين الصالحين والتوسل بهم والتبرك بآثارهم والدعاء عند قبورهم عبادة لهم كعبادة المشركين للأصنام ، ولم يعرفوا بين الحق والباطل ولم يدركوا أن الله تعالى إنما أنكر على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دونه تعالى وإشراكهم بها في دعوى الربوبية وأن عبادتهم لها تقربهم إلى الله زلفى ، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله ، لا من حيث توسلهم بها وقولهم أنها تقربهم إلى الله زلفى

وهنا دقيقة لابد من بيانها ، وهي : أن آخر هذه الآية يشهد بأن أولئك المشركين لم يكونوا صادقين في قولهم مسوغين عبادة الأصنام . ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، فإنهم لو كانوا صادقين في ذلك لكان الله أجلّ عندهم من تلك الأصنام ، فلم يعبدوا غيره . قال تعالى مبيناً هذه الحقيقة في آخر هذه الآية : ﴿ إنّ الله

لا يهْدي منْ هُوَ كـاذِبٌ كـفّار ﴾ ، وقد نهى الله تعالى المسلمين من سب أصنامهم بقوله تعالى : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذينَ يدْعون من دُونِ الله فيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بغيرِ علم كَذلك زَيّنّا لكلّ أمةٍ عملهمْ ثم إلى ربِّهمْ مرجعُهمُ فيُنبئهمْ بما كانوا يعْملون ﴾ .

روى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سيدنا قتادة رضي الله عنه أنه قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عز وجل ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تسبُّوا الذين يدْعون من دُون الله فيسُبّوا الله عدْواً بغير علم ﴾ . هذا سبب نزول هذه الآية ، فهي إذن تنهى المؤمنين نهي تحريم شديد أن يقولوا كلمة نقص في الحجارة التي كان يعبدها وثنيون مكة المشرفة . لأن قول تلك الكلمة يتسبب عنه غضب أولئك الوثنيين غيرة على تلك الأحجار التي كانوا يعتقدون من صميم قلوبهم أنها آلهة تنفع وتضر ، وإذا غضبوا قابلوا المسلمين بالمثل فيسبون ربهم الذي يعبدونه وهو رب العالمين ، ويرمونه بالنقائص وهو المنزه عن كل نقص ، ولو كانوا صادقين بأن عبادتهم لأصنامهم تقربهم إلى الله زلفى ، ما اجترأوا أن يسبوه انتقاماً ممن يسبون آلهتهم فإن ذلك أوضح جداً في أن الله تعالى في نفوسهم أقل من تلك الحجارة .

وقل ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَئنْ سَألـتَهُمْ من خلَقَ السّموات والأرض لَيَقُولُنّ الله ﴾ فإنهم لو كانوا يعتقدون حقاً أن

الله تعالى الخالق وحده ، وأن أصنامهم لا تخلق لكانت عبادتهم لله وحده دونها ، أو لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الحجارة

وهل هذا يتفق مع شتمهم له عز وجل غيرة على حجارتهم وانتقاماً لها منه سبحانه وتعالى ؟ ، إن البداهة تحكم أنه لا يتفق أبداً ، وليست الآية التي معنا وحدها تدل على أن الله تعالى أقل عند أولئك المشركين من حجارتهم ، بل لها أمثال منها قوله تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ فلولا أن الله تعالى أقل في نفوسهم من تلك الحجارة ما رجحوها عليه هذا الترجيح الذي تحكيه هذه الآية ، واستحقوا عليه حكم الله عليهم بقوله : ﴿ساء ما يحكمون﴾ ومن هذا القبيل قول أبي سفيان قبل إسلامه : ﴿أعْلُ هُبَل﴾ ، كما رواه البخاري ينادي صنمهم المسمى بهُبَلْ أن يعلو في تلك الشدة رب السموات والأرض ويقهره ليغلب هو وجيشه جيش المؤمنين الذي يريد أن يغلب آلهتهم ، هذا مقدار ما كان عليه أولئك المشركون مع تلك الأوثان ومع الله رب العالمين .

فليعرف حق المعرفة : فإن كثيراً من الناس لا يفهمونه كذلك ، ويبنون عليه ما يبنون ، فلو قالوا إنما نعبد الله وحده لا شريك له لا

الأصنام ؛ وعبوديتنا لله تعالى لا للأصنام ، ولكن لاعتقادنا قربها من الله على زعمهم جعلنا عبادة الله عندها فقط من غير أن نشركها بربوبية ولا ألوهية ، وإنما نرجو ببركتها أن يقبل الله عبادتنا ودعاءنا له وأن يقربنا إليه زلفى ، أو قالوا إنما نتخذها قبلة والعبادة خالصة لله تعالى لما أشركوا ، وإنما ينسب إليهم الجهل بارتكابهم محرماً فقط . حيث إنهم جعلوا لها هذا الاستحقاق من دعوى القرب أو القبلة من غير أمر من الله ، ولا علم أتاهم ، ولا سلطان جاءهم ، وعلى هذا لا يكفرون بعبادتهم لله تعالى عندها ؛ كما لا يكفر المؤمن بالله تعالى لو أذن في كنائس الكافرين ؛ أو صلى فيها فرضاً أو نفلاً ، ألا ترى أن الله لما أمر المسلمين باستقبال الكعبة في صلاتهم توجهوا بعبادتهم إليه ؛ واتخذوها قبلة . وليست العبادة لها ، وتقبيل الحجر الأسعد إنما هو عبودية لله تعالى ، واقتداء بالنبي ﷺ ، ولو أن أحداً من المسلمين نوى العبادة لهما لكان مشركاً كعبدة الأوثان ، وقد ثبت أن الأعمال بالنيات ، ومناط جميع الأعمال على النية والقصد ، ولم يسم الانحناء لتقبيل الحجر الأسعد ووضع النبي ﷺ جبهته عليه سجوداً له ، كما يزعم المنكرون أن المسلمين في تقبيل أيدي أولياء الله يسجدون لهم ، ولو كان سجوداً لكان الانحناء لتقبيل الحجر الأسعد سجوداً له ، وحينئذ يقعون في الورطة التي أرادوا الفرار منها ، وقد ثبت أن حبر الأمة عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهما أخذ بركاب زيد بن ثابت أحد علماء الصحابة رضي الله عنه ، فمنعه

تعظيماً له ولقرابته من رسول الله ﷺ ، فقال له عبد الله : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فأخذ بيده وقبّلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، ولم يعد انحناءه من فوق سرج بغلته لتقبيل يد عبدالله بن العباس سجوداً

وهذا دليل على أن كلاً منهما أمر بتعظيم الآخر ، وأن تعظيم الصالحين وتقبيل أيديهم مشروع

وجاء في سنن أبي داود عن زارع رضي الله تعالى عنه وكان من وفد عبد القيس ، قال : فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورجله .

وجاء في كتاب الترمذي عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في البيت فأتاه فقرع الباب فقام إليه النبي صلى يجرُّ ثوبه ، فاعتنقه وقبّله ، وقال الترمذي : حديث حسن ، وهذا دليل أيضاً على أن تقبيل الصالحين سنة مشروعة من سنن المرسلين .

وليس التوسل لله بالمقربين شركاً ، ولا حبهم لله وفي الله كفراً ، ألا ترى أن أولاد سيدنا يعقوب عليهم السلام جاءوا إلى أبيهم يتوسلون به إلى الله ، وقالوا : ﴿ ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ فهلا استغفروا لأنفسهم بدون واسطة ؟ وهل كانوا في ذلك مؤمنين أم مشركين ؟ كما يزعمه المنكرون ، وما طلبوا منه أن يستغفر لهم إلا

ليقربهم إلى الله زلفى ، وذلك لعلمهم بما له عند الله من القرب والخصوصية ، وما عليهم من الذنوب التي تباعد بينهم وبين الله وتحول بينهم وبين إجابة دعائهم . وكذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ في حق المؤمنين من أمته ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ . فانظر الى قوله ﴿ولو انهم اذ ظلموا انفسهم﴾ يعني عند تحقق حصول الذنب منهم والإساءة ، لأنهم هم المستحقون للشفاعة ﴿ جاءوك ﴾ فهو شرط مجيئهم إلى النبي ﷺ يعني المذنبين ، وعلمهم بذنبه وخضوعهم لذنبه قبل ذكر استغفارهم لله ، ثم قال : ﴿ فاستغفروا الله ﴾ فما الفائدة من ذلك ؟ هل كان لا يمكن استغفارهم لله تعالى قبل مجيئهم إلى النبي ﷺ ؟ . ثم قال : ﴿ واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ ، ما الفائدة من استغفار الرسول لهم ؟ هل كان لا يكفي مجيئهم إلى النبي ﷺ واستغفارهم لأنفسهم فيجدون الله تواباً رحيماً ؟ بل ما ذاك إلا ليرشدهم إلى الالتجاء إلى النبي ﷺ إذا أصابتهم مصيبة ، والتوسل به وطلب الشفاعة منه لهم بالغفران ليقربهم إلى الله زلفى .

وذم الله تعالى من صدّ عن طلب الاستغفار من رسول الله ﷺ وشدّد الحملة عليهم لأن ذاك أكبر علامة المنافقين ، فقال جل جلاله ﴿ وإذا قيل لهمْ تعالوا يَسْتغفرْ لَكُم رسُولُ الله لوّوا رُؤوسهمْ ورأيْتهمْ يصدّون وهم مُسْتكْبرُون ﴾ ، فما أشد هذا التوبيخ ، وما أمرّ هذا التقريع لو كانوا يفقهون .

وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيهِمْ إنَّ صَلاتك سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ ، أي رحمة لهم ، ومعنى الصلاة الدعاء . وأثنى الله على مؤمني الأعراب بقوله : ﴿ ومنَ الأعْرابِ من يؤمنُ بالله واليَوْم الآخر ويتَّخذُ ما يُنفق قُرباتٍ عند الله وصلوات الرسُول ألا إنَّها قُربة لهُم سيدخلهُم اللهُ في رَحْمته إنَّ الله غفُورٌ رحيم ﴾ ، فانظر إلى فضل الله ورحمته بالمؤمنين ، كيف يطلب لهم الدعاء من النبي ﷺ وبين لنا أن صلوات الرسول قربة ، فالله سبحانه وتعالى طلب لنا من النبي ﷺ الدعاء ، وهؤلاء المنكرون يقولون : التوسل بالنبي كفر ، وطلب الدعاء منه ومن غيره من عباد الله الصالحين شرك ، ثم أجبتهم بكتاب الله وبحق رسول الله ﷺ وسنته ، وقد كان المسلمون يلتجئون إلى النبي ﷺ في كل نازلة فيكشفها الله عنهم ببركته ، ولو كان ذلك شركاً وكفراً لما أقرهم على ذلك ولزجرهم .

ألا ترى أنه زجر من أراد السجود له ﷺ لما قال : إني رأيت الأعاجم يسجدون لملوكهم ، وأنت أحق بالسجود منهم ، فقال النبي ﷺ : (السجود لا يكون إلا لله) .

فانظر كم الفرق بين التوسل والعبادة فأين الأفهام الصافية هل من المسلمين من إذا زار نبياً أو ولياً سجد له ؟ أو فيهم من يعتقد أن النبي أو الولي إله من دون الله أو أنه ابن الله ؟ هيهات ، أين الفرق بين الفريقين .

فكيف يحرم المنكرون التوسل بالأنبياء والأولياء ، وقد ثبت التوسل بصريح الكتاب العزيز ، قال الله تعالى حكاية عن اليهود : ﴿ وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا ﴾ . أي يستنصرون على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ ، يعني محمداً ﷺ ، فإذا كان التوسل به ﷺ ثابتاً قبل ظهوره ، فكيف ينكرونه بعد ظهوره .

الاستدلال بآيات في غير محلها الوارد

يحتج بعضهم بآيات في القرآن وردت في المشركين ويطبقونها على الخواص والعوام من المؤمنين في الرد عليهم وبه يخلصون إلى الحكم عليهم بالكفر فيمن يتوسل بالنبي ﷺ أو يستغيث به أو يعظمه أو يستنجد به أو نداءه ، ويسمون ذلك دعاء للمنادى وقالوا إن الدعاء عبادة فهو عبادة لغير الله ، وأنه بذلك صار مشركاً لقوله تعالى : ﴿فلا تدعوا مع الله أحداً﴾ وقوله تعالى : ﴿ومنْ أضل ممَّن يدْعوا من دون الله من لا يَسْتَجيب لهُ إلى يوْمِ القِيامة وَهُمْ عنْ دُعائِهِم غافلون وإذا حُشر النَّاس كانوا لهُمْ أعْدَاء وكَانوا بِعِبَادتِهِم كافرين﴾ وقوله تعالى : ﴿ولا تدْعُ معَ اللهِ إلهاً آخرَ فتكُونَ منَ المعذَّبين﴾ . وقوله تعالى : ﴿ولا تَدْع من دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعكَ ولا يضُرك فإن فعَلْت فإنكَ إذاً منَ الظّالمين﴾ وقوله تعالى : ﴿لهُ دَعْوَةُ الحقِّ والذين يدْعُون من دُونه لا يستجيبُونَ لَهُمْ بِشَيء إلا كبَاسِطِ كفّيه إلى الماء ليبْلغَ فاهُ وما هُوَ بِبالغِهِ ومَا دُعاءُ الكافِرينَ إلا في ضلال﴾ وقوله تعالى . ﴿والّذين تَدْعُونَ من دُونه ما يملِكُونَ من

قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ وأمثال هذه الآيات كثير في القرآن وكلها حملوها على الموحدين

ثم زعم بعضهم أن من استغاث أو توسل بالنبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين ويكون داخلاً في عموم هذه الآيات ، وجعل زيارة قبر النبي ﷺ أيضاً مثل ذلك ، وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الأصنام : ﴿ مَا نَعْبُدُهُم إلا لِيُقَرِّبونا إلى الله زلفى ﴾ . إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئا ، بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ . فما حكم الله

عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم : (ليقربونا إلى الله زلفى) وهؤلاء مثلهم . هكذا يحتج هذا البعض من الغلاة على المؤمنين ، وهي حجة باطلة فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة ولا جعلوهم شركاء ، بل هم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون له ولا يعتقدون استحقاقهم العبادة ولا أنهم يخلقون شيئاً ولا أنهم يملكون نفعاً أو ضراً ، وإنما قصدوا التوسل بهم لكونهم أحباء الله المقربين الذين اصطفاهم واجتباهم ، وببركتهم يرحم الله عباده

وبذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة سنذكر لك كثيراً منها . فعقيدة المسلمين أن الخالق النافع الضار هو الله وحده ولا يعتقدون استحقاق العبادة إلا لله وحده ، ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه . وأما المشركون الذين نزلت فيهم الآيات السابق ذكرها ، فكانوا يتخذون الأصنام آلهة . والإله معناه المستحق للعبادة ، فهم يعتقدون استحقاق الأصنام للعبادة ، فاعتقادهم استحقاقها العبادة هو الذي أوقعهم في الشرك . فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يجوز لهؤلاء وأتباعهم أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام .

إذا علمت هذا تعلم أن جميع الآيات المتقدم ذكرها وما ماثلها من الآيات خاص بالكفار المشركين ولا يدخل فيها أحد من المؤمنين لأنهم لا يعتقدون ألوهية غير الله تعالى ، ولا يعتقدون استحقاق العبادة لغيره ، وقد جاء في حديث البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما في وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فحملوها على المؤمنين ، فهذا الوصف صادق على هؤلاء الغلاة المتعنتين الذين ينسبون أنفسهم إلى السلف ، والسلف منهم براء[1] .

---

(١) اهـ بتصرف من شواهد الحق للنبهاني ص ١٥٢ .

القرآن كلام الله وهو أفضل الكلام بلا خلاف

والمقارنة بينه وبين الصلاة على النبي ﷺ كلمة حق اريد بها باطل

كثيراً ما نسمع بعض الاخوان هداهم الله إلى الصراط المستقيم ونور بصائرهم بحب نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم

نسمع هؤلاء يعترضون بشدة على من يرونه مشتغلاً بالصلاة والسلام على سيد السادات وإمام أهل الأرض والسموات سيدنا محمد ﷺ تسليماً كثيراً ، ويقولون له إن الاشتغال بقراءة القرآن وبذكر الله هو أفضل من الاشتغال بالصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وهنا يقف الإنسان حائراً متعجباً مندهشاً أمام هذه الحجة القوية والبرهان الذي لا ينكره مسلم ولا يخالف فيه عاقل موحّد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، بل إن عوام المسلمين ممن لا ينتسبون إلى العلم يعرفون هذا ويدركون الفرق بين القرآن وبين الصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وهو أمر ظاهر واضح لا يشك فيه إلا أعمى البصيرة أو جاهل مركب - والعياذ بالله - بعيد عن المجتمع الإسلامي القرآني .

وإني أظن ﴿ وبعض الظن إثم ﴾ أن نية هذا المعترض سيئة وقصده خبيث ، فهو ما أراد بهذا إلا أن يمنع هذا المحب الصادق من الاشتغال بالصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وأن يستدل على ذلك بهذه الحقيقة

الصادقة ليتوصل بها إلى ذلك المطلوب الفاسد بغضاً وحسداً وكرهاً ،
هذا ما هو في ظني وإن كان غير ذلك فأستغفر الله العظيم من سوء
الظن ، وما علم هذا المعترض المنكر بأن الصلاة على النبي ﷺ في
المواطن التي ورد الشرع فيها أفضل ، ولا يقوم غيرها مقامها ، وأما
في غير ذلك فالقرآن أفضل ، وينبغي الإكثار من الصلاة والسلام ولا
يقصر في ذلك إلا محروم

وقال ابن حجر في (شرح العباب) : تلاوة القرآن أفضل الذكر
العام الذي لم يخص بوقت أو محل ، أما ما خص بذلك بأن ورد الشرع
فيه ولو من طريق ضعيف فيما يظهر فهو أفضل لتنصيص الشارع
عليه اهـ . وقال في (حاشية إيضاح المناسك) عند قول الإمام
النووي فيه في الباب السادس منه : المسألة الثالثة : يستحب إذا
توجه إلى زيارته ﷺ أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه في طريقه ،
فإذا وقع بصره على أشجار المدينة وحرمها وما يعرف بها زاد من
الصلاة والتسليم عليه ﷺ ويسأل الله أن ينفعه بزيارته وأن يتقبل
منه ، قال : قوله (وأن يكثر من الصلاة .. الخ) ، هل الإكثار منها
أفضل منه بقراءة القرآن أو عكسه ، وكذا يقال في ليلة الجمعة ونحوها
مما طلب فيه الإكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ أو هما مستويان ؟
كل محتمل وكلامهم في باب الجمعة ربما يومىء إلى الأخير ، والظاهر
أن الإكثار من الصلاة والسلام عليه في ذلك أفضل ، لأن ذلك ذكر
طلب في محل مخصوص ، وقد قالوا : إن القراءة إنما تكون أفضل من

الذكر الذي لم يحص ، أما ما يخص فهو أفضل منها ، وهذا منه ، انتهت عبارته .

وقال الإمام الغزالي : تلاوة القرآن أفضل للخلق كلهم إلا الذاهب إلى الله تعالى فمداومته على الذكر أولى ا هـ .

وقال في (ذخيرة المعاد) : قال بعض العارفين إن الحال يختلف بحسب اختلاف الذاكر فمتى وجد أنساً صادقاً بالقرآن كان الاشتغال به أفضل ، أو بغيره من الأذكار فهو أولى . قال : وهذا مسلك عدل إذ لا ريب أنه إذا طهرت النفس من درن الرعونات ، وصفت من أكدار الأغيار والشهوات ، وانجلت عن بصيرتها غشاوة الكثائف المانعة من نفوذ نورها إلى الحقائق فصارت مدركة لغامض أسرارالغيوب اللائق انكشافها لها بإذن الوهاب الخالق ، يوافق صاحب هذا النفس الطاهرة وارد الوقت ما يطلبه منه أي نوع كان من قراءة وذكر وصلاة على النبي ﷺ ، لأنه حينئذ من رجال ﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، فليلج حضرة القرب من أبواب مفتوحة حسبما يدعوه هاتف العناية إلى الملاحظة لجميع شؤونه ، فلا يستغرق وقته إلا بما يطلبه منه وارده ، فالأولى في حقه بكنه الهمة والقلب الحاضر ، الإقبال على تلاوة الكتاب العزيز ، الجامع لأصناف الدلالة على من أنزله تعالى ، مراعياً حقوق القرآن معطي التلاوة حقها حافظاً حضرة الحرمة التي دعي لها ، وأما الصلاة على النبي ﷺ فهي من أنجح وسائل الطالبين ،

وأنفع الأسباب الموصلة إلى مقامات السابقين ، فينبغي أيضاً اغتنام بركتها بالاشتغال بها حسبما يمكن ، مع كمال الحضور وملاحظة المصلى عليه ، والتأهل بالتأدب الحقيقي لما يقتضيه سلطان حضرتها مما لديه ﷺ .

وأما ما ذكروه من أفضلية الاشتغال بالأذكار المخصوصة بوقت على الاشتغال بالتلاوة في ذلك الوقت فلا ينافي أفضلية ذات القرآن الكريم على سائر الأذكار كما أفصحت به الأحاديث الثابتة المعروفة في مظانها من كتب السنة المطهرة ، لأن ثواب اتباعه ﷺ يربو على ثواب الاشتغال بذكر الحكيم كما نصوا عليه ، وسرّ ذلك أن جميع الأذكار إنما منّ الله تعالى بها لمعالجة الأمراض الكامنة في بواطن الخلق المكونة من مورد آثار الأغيار على صفحات القلوب ، والطبيب أدرى بموقع الدواء ونجاحه وإخراج عرق الداء من أصله على ما ينبغي ويليق ، وهو الطبيب الأعظم والحكيم الأكرم ﷺ ، فلذلك كان اتباعه أشرف وأجدى مما تخيله القاصرون أنه أزكى لديه بحسب ما تقتضيه ظنونهم وتتخيله خيالاتهم الغير المعصومة ، وشتان ما بين من عصمه الله في جميع أحواله وعلومه وظنونه وتولى في سائر شؤونه ﷺ وبين من جعله هدفاً لنبال الخطأ ونوع له أنواع المتشابهات ابتلاء وفتنة ، فمن آمن بأنه ﷺ إمام العارفين معرفة صادقة بما يصلح لكل إنسان في كل زمن وما يطلبه منه وقته وحاله وما يوجب إسباغ النعم الإلهية ودوامها عليه ظاهراً وباطناً عاجلاً وآجلاً صرح بمفهومه وظنونه وعلومه وكشوفاته ،

واعترف بأن الناكب عن سنته في طريق العلوم وسبيل الأعمال وصراط الأذكار ومنهج الدعوات وشرعة الإسلام ، يكون محروماً شقياً وضالاً مضلاً تاركاً للإتباع متمسكاً بالإبتداع ، وفقنا الله لاتباعه وجعلنا من كمل أتباعه ﷺ ، ا هـ .

وقال الشيخ أبو العباس التجاني فيما نقله عن إملائه تلميذه علي حرازم في (جواهر المعاني) عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام أخبره عن الله تعالى أنه عز وجل يقول : من صلى عليك صليت عليه ، قال ﷺ : وحق لمن صلى الله عليه أن لا يعذبه بالنار .

ومن هذه الحيثية أن الصلاة عليه ﷺ في حق الفاسق أفضل له من تلاوة القرآن ، لأنها شائعة له في إفاضة رضا الرب عليه ومحقها لذنوبه وإدخاله في زمرة أهل السعادة الأخروية ، ولا كذلك القرآن فإنه وإن كان أفضل منها لكنه محل القرب والحضرة الإلهية يحق لمن حلّ فيها أن لا يتجاسر بشيء من سوء الأدب ، ومن تجاسر فيها بسوء الأدب ، استحق من الله اللعن والطرد والغضب ، لأن حملة القرآن أهل الله فهم مؤاخذون أكثر من غيرهم بأقل من مثاقيل الذر إلا أن تكون له من الله عناية سابقة بمحض الفضل فتكون له عصمة من ذلك ، فبان لك أن الصلاة على رسول الله ﷺ في حق الفاسق أنفع له من تلاوة القرآن ، فإن القرآن مرتبة النبوة تقتضي الطهارة والصفاء ، وتوفية الآداب المرضية والتخلق بالأخلاق الروحانية ، فلذا يتضرر العامة

بتلاوته لبعدهم عن ذلك ، وأما الصلاة عليه ﷺ فليس فيها إلا التلفظ بها باستصحاب تعظيم النبي ﷺ بحالة يليق بتاليها من الطهارة الحسية ثوباً وجسداً ومكاناً ، وبتلاوتها باللفظ المعهود في الشرع من غير لحن ، فإن الله سبحانه وتعالى يصلي على تاليها إن يصلي عليه ، ومن صلى الله عليه مرة لا يعذبه اهـ

فـــائـــدة

سئل الشهاب الرملي : هل الأفضل الاستغفار أو الاشتغال بالصلاة والسلام على النبي ﷺ أو يفرق بين من غلبت طاعاته فالصلاة أفضل ومن غلبت معاصيه فالاستغفار أفضل ؟

فأجاب بأن الاشتغال بالصلاة والسلام على النبي ﷺ أفضل من الاشتغال بالاستغفار مطلقاً . انتهى من فتاويه .

سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين . ص ٣٩ - ٤١

مقام الخالق ومقام المخلوق

إن الفرق بين مقام الخالق والمخلوق هو الحد الفاصل بين الكفر والإيمان ، ونعتقد أن من خلط بين المقامين فقد كفر والعياذ بالله .

ولكل مقام حقوقه الخاصة ، ولكن هناك أموراً ترد في هذا الباب وخصوصاً فيما يتعلق بالنبي ﷺ ، وخصائصه التي تميزه عن غيره من البشر وترفعه عليهم ، وهذه الأمور قد تشتبه على بعض الناس لقصر عقولهم وضعف تفكيرهم وضيق نظرهم وسوء فهمهم ، فيبادرون إلى الحكم بتكفير أصحابها وإخراجهم عن دائرة الإسلام ظناً منهم أن في ذلك تخليطاً بين مقام الخالق والمخلوق ، ورفعاً لمقام النبي ﷺ إلى مقام الألوهية ، وإننا نبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك .

وإننا بفضل الله تعالى نعرف ما يجب لله تعالى ، وما يجب لرسوله ﷺ . ونعرف ما هو محض حق لله تعالى ، وما هو محض حق لرسوله ﷺ ، من غير غلو ولا إطراء يصل إلى حد وصفه بخصائص الربوبية والألوهية في المنع والعطاء والنفع والضر الاستقلالي – دون الله تعالى – والسلطة الكاملة والهيمنة الشاملة والخلق والملك والتدبير والتفرد بالكمال والجلال والتقديس والتفرد بالعبادة بمختلف أنواعها وأحوالها ومراتبها .

أما الغلو الذي يعني التغالي في محبته وطاعته والتعلق به ، فهذا محبوب ومطلوب ، كما جاء في الحديث : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم » .

والمعنى أن إطراءه والتعالي فيه والثناء عليه بما سوى ذلك هو محمود ، ولو كان معناه غير ذلك لكان المراد هو النهي عن إطرائه ومدحه أصلاً ، ومعلوم أن هذا لا يقوله أجهل جاهل في المسلمين ، فإن الله تعالى عظم النبي ﷺ في القرآن بأعلى أنواع التعظيم ، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه .. نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية ، ورحم الله القائل حيث قال :

دع ما ادعته النصـــارى فـي نبيهم

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فليس في تعظيمه ﷺ بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك ، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكالملائكة والصديقين والشهـــداء والصـــالحين ، قال الله تعالى : ﴿ **ذلـك ومَن يُعظِّم حُرمات الله فَهُو خَيرٌ لهُ عِند ربِّه** ﴾ الآيـة .وقال الله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ ومن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فإنها من تَقْوى الْقُلُوب** ﴾ الآية .

ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه

السلام ، فإنها أحجار ، وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت ومس الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود وبالصلاة خلف المقام وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم ، ونحن في ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ، ولم نعتقد تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا ضراً ، ولا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى

مقام المخلوق :

أما هو ﷺ فإنا نعتقد أنه ﷺ بشر يجوز عليه ما يجوز على غيره من البشر من حصول الأعراض والأمراض التي لا توجب النقص والنفرة ، كما قال صاحب العقيدة :

وجائز في حقهم من عرض
بغير نقص كخفيف المرض

وأنه ﷺ عبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً إلا ما شاء الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لا أمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضراً الا ما شَاءَ اللهَ ولَوْ كُنتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرتُ من الخيرِ وما مسّني السُّوء إنْ أنا إلا نَذِيرٌ وبشيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُون ﴾ . الأعراف : ١٨٨ .

وأنه ﷺ قد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين ، فانتقل إلى جوار ربه راضياً

مرضياً ، كما قال تعالى : ﴿ إنك ميّت وإنهم ميّتون ﴾ .

وقال ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾

والعبودية هي أشرف صفاته ﷺ ، ولذلك فإنه يفتخر بها ويقول « إنما أنا عبد » ، ووصفه الله بها في أعلى مقام : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ الآية . وقال ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ الآية

والبشرية هي عين إعجازه فهو بشر من جنس البشر ، لكنه متميز عنهم تميزاً لا يلحقه به احد منهم أو يساويه كما قال ﷺ عن نفسه في الحديث الصحيح : « إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني »

وبهذا ظهر أن وصفه ﷺ بالبشرية يجب أن يقترن بما يميزه عن عامة البشر من ذكر خصائصه الفريدة ومناقبه الحميدة ، وهذا ليس خاصا به ﷺ ، بل هو عام في حق جميع رسل الله سبحانه وتعالى لتكون نظرتنا إليهم لائقة بمقامهم ، وذلك لأن ملاحظة البشرية العادية المجردة فيهم دون غيرها هي نظرة جاهلية شركية ، وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك ، فمن ذلك قول قوم نوح في حقه فيما حكاه الله عنهم إذ قال : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ﴾ الآية ، سورة هود : ٢٧ .

ومن ذلك قول قوم موسى وهارون في حقهما فيما حكاه الله عنهم إذ قال : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ المؤمنون : ٤٧ .

ومن ذلك قول ثمود لنبيهم صالح فيما حكاه الله عنهم بقوله ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ سورة الشعراء : ١٥٤ .

ومن ذلك قول أصحاب الأيكة لنبيهم شعيب فيما حكاه الله عنهم بقوله ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ سورة الشعراء : ١٨٦ .

ومن ذلك قول المشركين في حق سيدنا محمد ﷺ لما رأوه بعين البشرية المجردة فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ الآية ، ولقد تحدث رسول الله ﷺ عن نفسه حديث الصدق بما أكرمه الله تعالى به من عظيم الصفات وخوارق العادات التي تميز بها عن سائر أنواع البشر .

فمن ذلك ما جاء في الحديث الصحيح أنه قال : « تنام عيناي ولا ينام قلبي » ، وجاء في الصحيح أنه قال : « إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من أمامي » .

وجاء في الصحيح أنه قال : « أوتيت مفاتيح خزائن الأرض » .

وهو ﷺ وإن كان قد مات إلا أنه حي حياة برزخية كاملة يسمع الكلام ويرد السلام وتبلغه صلاة من يصلي عليه وتعرض عليه أعمال الأمة فيفرح بعمل المحسنين ويستغفر للمسيئين ، وأن الله حرم على الأرض أن تأكل جسده فهو محفوظ من الآفات والعوارض الأرضية .

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليَّ ، قالوا : يارسول الله! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يعني : بليت ؟ فقال : إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » رواه أحمد وأبود داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

وفي ذلك رسالة خاصة للحافظ جلال الدين السيوطي أسماها « إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء » عليهم الصلاة والسلام .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم تعرض عليَّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم » . قال الهيثمي : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام » . رواه

أحمد وأبو داود .

قال بعض العلماء : رد عليَّ روحي أي نطقي .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : إن الله وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق ، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه ، هذا فلان بن فلان قد صلى عليك » . رواه البزار وأبو الشيخ ابن حبان ولفظه : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تبارك وتعالى ملكاً أعطاه الله أسماء الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت ، فليس أحد يصلي عليَّ إلا قال : يامحمد ! صلى عليك فلان بن فلان ، قال : فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً » رواه الطبراني في الكبير بنحوه .

وهو ﷺ وإن كان قد مات إلا أن فضله ومقامه وجاهه عند ربه باق لا شك في ذلك ولا ريب عند أهل الإيمان ، ولذلك فإن التوسل به إلى الله سبحانه وتعالى إنما يرجع في الحقيقة إلى اعتقاد وجود تلك المعاني واعتقاد محبته وكرامته عند ربه وإلى الإيمان به وبرسالته ﷺ ، وليس هو عبادة له ، بل إنه مهما عظمت درجته وعلت رتبته فهو مخلوق لا يضر ولا ينفع من دون الله إلا بإذنه .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مثلكم يُوحى إليَّ إنمَّا إلهكم إله واحد ﴾ .

أمور مشتركة بين المقامين لا تنافي التنزيه

وقد أخطأ كثير من الناس في فهم بعض الأمور المشتركة بين المقامين مقام الخالق ومقام المخلوق فظن أن نسبتها إلى [illegible] المخلوق شرك بالله تعالى.

ومن ذلك بعض الخصائص النبوية مثلاً التي يخطئ بعضهم في فهمها فيقيسونها بمقياس البشرية، ولذلك يستكثرونها ويستعظمونها على رسول الله ﷺ، ويرون أن وصفه بها معناه وصفه ببعض صفات الألوهية، وهذا جهل محض لأنه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء وكما يشاء بلا موجب ملزم، وإنما هو تفضل على من أراد إكرامه ورفع مقامه وإظهار فضله على غيره من البشر وليس في ذلك انتزاع لحقوق الربوبية وصفات الألوهية، فهي محفوظة بما يناسب مقام الحق سبحانه وتعالى، وإذا اتصف المخلوق بشيء منها فيكون بما يناسب البشرية من كونها محدودة مكتسبة بإذن الله وفضله وإرادته، لا بقوة المخلوق ولا تدبيره ولا أمره، إذ هو عاجز ضعيف لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وكم من أمور جاء ما يدل على أنها حق لله سبحانه وتعالى، ولكنه سبحانه وتعالى منّ بها على نبيه ﷺ وغيره.

وحسند فلا يرفعه وصفه بها إلى مقام الألوهية أو يجعله شريكاً لله سبحانه وتعالى فمنها : الشفاعة ، فهي لله ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لله الشَّفاعة ﴾ وهي ثابتة للرسول ولغيره من الشفعاء بإذن الله كما جاء في الحديث « أوتيت الشفاعة »

وحديث « انا أول شافع ومشفع »

ومنها علم الغيب ، فهو لله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ لا يعْلَمُ من في السموات والأرض الغيب الا الله ﴾ ، وقد ثبت أن الله تعالى علّم نبيه من بعض ما علمه وأعطاه ما أعطاه ﴿ عالمُ الغيْب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسُول ﴾ الآية

ومنها الهداية فهي خاصة بالله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببْت ولكنَّ الله يَهْدي من يشاء ﴾ ، وقد جاء له ﷺ شيء من ذلك ، فقال : ﴿ وَإنّك لتهْدي إلى صِراط مستقيم ﴾ والهداية الأولى غير الهداية الثانية، وهذا إنما يفهمه العقلاء من المؤمنين يعرفون الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول : وإنك لتهدي هداية إرشاد ، أو أن يقول : إنك لتهدي هداية غير هدايتنا ، ولكن كل ذلك لم يحصل ، بل أثبت له هداية مطلقة بلا قيد ولا شرط ، لأن الموحد منا معشر المخاطبين من أهل الإسلام يفهم معاني الألفاظ ويدرك اختلاف مدلولاتها بالنسبة لما أضيف إلى الله ، وبالنسبة لما أضيف إلى رسول الله ﷺ ، ونظير هذا

ما جاء في القرآن من وصف رسول الله ﷺ بالرأفة والرحمة ، إذ يقول : ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ الآية ، ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بذلك أيضاً في أكثر من موضع ، فهو سبحانه وتعالى ﴿رؤوف رحيم﴾ . ومعلوم أن الرأفة والرحمة الثانية غير الأولى ، ولما وصف نبيه ﷺ بذلك الوصف وصفه به بالإطلاق بلا قيد ولا شرط ، لأن المخاطب وهو موحد مؤمن بالله يعلم الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولولا ذلك لاحتاج أن يقول في وصفه ﷺ : رؤوف برأفة غير رأفتنا ورحيم برحمة غير رحمتنا ، أو أن يقول : رؤوف برأفة خاصة ورحيم برحمة خاصة ، أو أن يقول : رؤوف برأفة بشرية ورحيم برحمة بشرية ، ولكن كل ذلك لم يحصل ، بل أثبت له رأفة مطلقة ورحمة مطلقة بلا قيد ولا شرط ، فقال : ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ الآية

المجاز العقلي واستعماله

ولا شك أن المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة ، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ ، فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي لأنها سبب في الزيادة ، والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده .

وقوله تعالى ﴿ يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ ، فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلي ، لأن اليوم محل جعلهم شيباً فالجعل المذكور واقع في اليوم ، والجاعل حقيقة هو الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾ ، فإن إسناد الإضلال إلى الأصنام مجاز عقلي لأنها سبب في حصول الإضلال ، والهادي والمضل هو الله تعالى وحده .

وقوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ ياهامان ابن لي صرحاً ﴾ ، فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلي لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبني بنفسه ، والباني إنما هو الفعلة من العمال ، وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها ، وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقي والمجازي فلا حاجة إلى الإطالة بنقلها ، وقال العلماء : إن صدور ذلك الإسناد من موحد كافٍ في جعله إسناداً مجازياً ، لأن

الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم ، لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض ، بخلاف ما لو اعتقد [illegible] [illegible] الأشياء

ضرورة ملاحظة السنة في مقياس الكفر والإيمان

وقد تمسك طوائف من أهل الضلالات بدليل شبهة ظواهر الأدلة من دون نظر في القرائن والمقاصد وبدون نظر إلى الجمع مما لا يؤدي إلى التعارض بين الوارد كالقائلين بخلق القرآن تمسكوا بنحو قوله تعالى ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ ، والقائلين بالقدر تمسكوا بنحو قوله تعالى ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ و ﴿ بما كُنْتُم تعْملون ﴾ إلى غير ذلك ، والقائلين بالجبر تمسكوا بنحو قوله تعالى : ﴿ واللهُ خلقكُم وما تعملون ﴾ ، ﴿ وما رميت إذْ رميتَ ولكنّ الله رمى ﴾ الآية .

وكشف الغطاء عن ذلك أن جميع الأمة غير القدرية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لقوله : ﴿ واللهُ خلقكم وما تعْملون ﴾ الآية ، وقوله تعالى ﴿ وما رميت اذْ رميتَ ولكنّ الله رَمى ﴾ الآية ، وإن كان يجوز أن يوصف بها العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب كما في قوله تعالى : ﴿ لَها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتسبتْ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَبِما كَسَبَتْ أيديكُم ﴾ الى غير ذلك من الآيات المصرحة بإضافة الكسب إلى العبد ، وليس

من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ، لأن قدرة
الله تعالى في الأزل كانت متعلقة بالعالم قبل اختراعه لوجوده ، وهي
عند اختراعه متعلقة به بنوع آخر من التعلق .

حقيقة نسبة الأفعال للعباد :

ومن هذا يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور
به ، وأفعال العباد نسبتها إليهم على طريق التسبب لا الاختراع ، لأن
الله تعالى هو المخترع لها والمقدر لها والمريد لها ، ولا يرد أنه كيف
يريد ما ينهى عنه ، لأن الأمر يغاير الإرادة بدليل أمره جميع الناس
بالإيمان ولم يرده من أكثرهم ، لقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس
ولو حرصت بمؤمنين ﴾ الآية ، فنسبة الأفعال إلى العباد من نسبة
المسبب إلى السبب أو الواسطة ، وهذا لا منافاة فيه ، لأن مسبب
الأسباب هو الذي خلق الواسطة وخلق فيها معنى الوساطة ، ولولا ذلك
الذي أودع الله تعالى فيها لم تصلح أن تكون واسطة وسواء كانت مما
لم يودع العقل كالجماد والأفلاك والمطر والنار ، أو كانت عاقلة من
ملك أو إنسي أو جني .

اختلاف المعنى باختلاف النسبة اللفظية :

ولعلك تقول : لا تعقل نسبة الفعل الواحد إلى فاعلين لاستحالة
اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، فنقول : نعم ، هو كما قلتم لكن محله

إذا لم يكن للفاعل إلا معنى واحد في الاستعمال .

أما إذا كان له معنيان فيكون الإسم محملاً مترددا بينهما في الاستعمال ، وحينئذ لا يمتنع إطلاقه على كل منهما كما هو المعلوم من الاستعمال في الأسماء المشتركة أو في الحقيقة والمجاز كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله السياف ، فإطلاق القتل على الأمير بمعنى غير معنى الذي أطلق به على السياف ، فقولنا إن الله تعالى فاعل بمعنى أنه المخترع الموجد ، وقولنا إن المخلوق فاعل فمعناه أنه محل الذي خلق الله تعالى فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة وبعد أن خلق فيه العلم ، فارتباط القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط معلول بعلته وارتبط المخترع بالمخترع ، هذا إذا كان المحل عاقلاً وإلا فهو من ترتيب المسببات على أسبابها ، فصح أن يسمى كل ما له ارتبط بقدرة فاعلاً كيفما كان الارتباط ، كما يسمى السياف قاتلاً باعتبار والأمير قاتلاً باعتبار ، لأن القتل ارتبط بكليهما ، وإن كان ارتبطه على وجهين مختلفين ساغ تسمية كل منهما فاعلاً ، فمثل ذلك اعتبار المقدورات بالقدرتين ، والدليل على جواز هذه النسبة وتطابقها نسبة الله تعالى الأفعال إلى الملائكة تارة ، وتارة إلى غيرهم من العباد ، ومرة أخرى نسبها بعينها إلى نفسه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بِكُم ﴾ وقال تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حين موْتها ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ أفرأيتُمْ ما تحْرثون ﴾ الآية ، بالإضافة إليهم ، ثم قال : ﴿ أنا صببْنا الماءَ صَباً ، ثم شققْنا الأرض شقاً ، فأنبتْنا فيها حباً ﴾ الآية : ، وقال تعالى :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ الآية ، فأسند النفخ إليه مع أن النافخ هو جبريل عليه السلام ، وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ والقارئ الذي يسمع النبي ﷺ قراءته هو جبريل ، وقال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ الآية نفى عنهم القتل وأثبته لنفسه ، ونفى عنه الرمي وأثبته لنفسه ونعني بالمراد نفي الحس من قتلهم الكفار ورميه لهم عليه الصلاة والسلام بالحصباء ، ولكن المعنى أنهم ما قتلوهم ولا رموهم بالمعنى الذي يكون الرب به قتلهم ورماهم وهو الاختراع والتقدير ، إذ هما معنيان مختلفان ، وتارة ينسب الفعل إليهما معاً كقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ الآية .

وروت عائشة رضي الله عنها : أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق الجنين يبعث ملكاً فيدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسداً ، فيقول : يارب ! أذكر أم أنثى ؟ أسويّ أم معوّج ؟ فيقول تعالى ما شاء ، ويخلق الملك .

وفي لفظ آخر : فيصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة .

فإذا فهمت هذا اتضح لك أن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة

ولا تناقض بينها ، ولذلك الفعل ينسب تارة للجماد ، كما في قوله تعالى ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ الآية . فالشجرة لا [illegible] الإثمار [illegible] ، وكما في قوله ﷺ للذي ناوله تمرة خذها ، لو لم [illegible] لأتتك [illegible] الحديث كما في الطبراني وابن حبان في صحاحه [illegible] إلى الرجل وإلى التمرة فمعنى اتيان التمرة [illegible] معنى [illegible] منهما مجازان مختلفان في الإسناد [illegible] معنى اتيان الرجل بمعنى أن الله خلق فيه العادة [illegible] بمعنى أن الله يسبب من يأتي بها ، والحقيقة [illegible] إلى الله تعالى في كل منهما ، ولأجل اختلاف [illegible] الوسائط تارة يكون ملاحظة الوسائط في الأفعال كفرا كما في حديث قارون لموسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ الآية وكما في حديث : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب » ، وهذا الكفر باعتبار أن الواسطة مؤثرة ومخترعة .

قال النووي : اختلف العلماء في كفر من قال : مطرنا بنوء كذا على قولين . أحدهما : هو كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام ، قالوا : وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر ، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم ، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره ، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير

العلماء ، والشافعي منهم وهو ظاهر في الحديث ، قالوا وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقدا أنه من الله تعالى وبرحمته ، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارا بالعادة ، فكأنه قال مطرنا في وقت كذا ، فهذا لا يكفر

واختلفوا في كراهته والأظهر كراهة تنزيه لا إثم فيها ، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره ، فيساء الظن بصاحبها ، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم

والنوع الثاني في تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب ، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب : أصبح من الناس شاكر وكافر وفي الرواية الأخرى : ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، فقوله بها يدل على أنه كفر النعمة ، والله أعلم . ا هـ .

والحاصل أن من نسب الفعل إلى الواسطة لا يكفر إلا إذا اعتقد أنها هي الفاعلة المدبرة المخترعة ، وإذا لم تكن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار بحيث أن الواسطة علامة أو ظرف الخلق المقدور فيها فلا كفر ، بل تارة يندب الشرع إلى ملاحظتها كقول النبي ﷺ : « من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » .

وقوله ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

وذلك لأن ملاحظة الواسطة بهذا الاعتبار لا ينافي رؤية المنة لله سبحانه وتعالى ، وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم ، بل وأثابهم عليها وهو الباعث لإرادتهم لها ، والخالق لقدرتهم عليها كقوله تعالى : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ الآية

وإذا ظهر لنا أن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تناقض بين تعبير ... المفهم الصحيح السليم

... أوسع من العبارات ، والمقاصد أوسع من الكلمات ... مع حقيقة اللفظ دون المجاز ، لم نجد إلى الجمع بين النصوص ... لمعرفته من جواز ، ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى به عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من قوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ الآية ، أترى إبراهيم يشرك مع الله تعالى أحداً وهو القائل : ﴿ أتعبُدُون ما تَنْحِتُون واللهُ خَلَقَكُمْ وما تعْملون ﴾

والأمر الجامع في ذلك أن من أشرك مع الله جل جلاله غيره في الاختراع والتأثير فهو مشرك ، سواء كان الملحوظ معه جماداً أو آدمياً نبياً أو غيره . ومن اعتقد السببية في شيء من ذلك اطردت أو لم تطرد ، فجعل الله تعالى لها سبباً لحصول مسبباتها ، وأن الفاعل هو الله وحده لا شريك له فهو مؤمن ولو أخطأ في ظنه ما ليس بسبب سبباً ، لأن خطأه في السبب لا في المسبب الخالق المدبر جل جلاله وعظم شأنه .

التعظيم بين العبادة والأدب

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة التعظيم وحقيقة العبادة ، ويخلطون بينهما خلطاً بيناً ويعتبرون أن أي نوع من أنواع التعظيم هو عبادة للمعظَّم ، فالقيام وتقبيل اليد وتعظيم النبي ﷺ بسيدنا ومولانا والوقوف أمامه في الزيارة بأدب ووقار وخضوع ، كل ذلك غلو عندهم يؤدي إلى العبادة لغير الله تعالى ، وهذا في الحقيقة جهل وتعسف لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ وتكلف تأباه روح الشريعة الإسلامية .

فهذا آدم أبو الجنس الإنساني ، وأول عباد الله الصالحين من هذا الجنس أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً لما آتاه من العلم وإعلاماً له باصطفائه من بين سائر مخلوقاته ، قال تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة اسْجُدُوا لآدم فَسَجَدُوا إلا إبْلِيس ، قال ءأسْجُدُ لمن خلقْت طيناً قال أرأيتك هَذا الذي كَرّمت عليّ ﴾ الآيـة . وفـي آية أخرى قال : ﴿ أنا خيْرٌ منه خَلَقْتني من نارٍ وخَلَقْته من طين ﴾ الآية ، وفي آية أخرى ﴿ فسجَد الملائكة كلهم أجْمَعُون إلا إبليس أبى أن يكُون مع السّاجدين ﴾ فالملائكة عليهم السلام عظموا من عظمه الله ، وإبليس تكبر أن يسجد لمن خلق من طين ، فهو أول من قاس الدين برأيه وقال : (أنا خير منه) ، وعلل ذلك بعلة خلقه من نار

وخلق آدم من طين ، وأَنِفَ من تكرمته عليه واستنكف من السجود له ، فهو أول المتكبرين ولم يعظم من عظمه الله ، فطرد من رحمة الله لتكبره على هذا العبد الصالح وهو عين التكبر على الله ، لأن السجود إنما هو لله إذا هو بأمره ، وإنما جعل السجود له تشريفاً وتكريماً له عليهم ، وكان من الموحدين فلم يشهد توحيده .

ومما جاء في تعظيم الصالحين قول الله تعالى في حق يوسف عليه السلام : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجداً ﴾ الآية ، تحية وتكرمة وتشريفاً وتعظيماً له عليهم والسجود من إخوته له إلى الأرض يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَخَروا ﴾ ، ولعله كان جائزاً في شرعهم أو كسجود الملائكة لآدم عليه السلام تشريفاً وتعظيماً وامتثالاً لأمر الله تأويلاً لرؤيا يوسف إذ رؤيا الأنبياء وحي .

أما نبينا محمد ﷺ فقد قال الله تعالى في حقه : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه ﴾ الآية ، وقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تُقدّموا بين يدي الله ورسوله ﴾ الآية ، وقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ الآيات الثلاث ، وقال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دُعاء الرسول بينكم كدُعاء بعضكم بعضاً ﴾ الآية ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام ، قال سهل بن عبد الله : لا تقولوا قبل أن يقول ، أي لا تتكلموا قبله ، وإذا قال

يسمعوا له وأنصتوا ، وقال : نهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر من قضاته فيه . وأن يفتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ، ولا يسبقوه به ، ثم وعظهم وحذرهم من مخالفة ذلك فقال ﴿ واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ ، قال السلمي : اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض في رفع صوته وقال كما ينادي بعضهم بعضا باسمه يا محمد ... أي لا تسابقوه بالكلام ، وتغلظوا له بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به ، يارسول الله ، يانبي الله ، وهذا كقوله في الآية الأخرى : ﴿ لا تجْعَلوا دُعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾ الآية . وقال غيره : لا تخاطبوه إلا مستفهمين ، ثم خوفهم الله تعالى بحبوط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه . والآية نزلت في جماعة أتوا النبي ﷺ فنادوه يامحمد اخرج إلينا ، فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون .

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه : وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه . (رواه مسلم في الصحيح ، كتاب الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله)

وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس ، فيهم أبو بكر وعمر ، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ، ويتبسمان إليه ويتبسم لهما

وروى أسامة بن شريك قال : أتيت النبي ﷺ ، وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير . وفي صفته : إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير

وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام الحديبية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، وكانوا يقتتلون عليه ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تنقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، فلما رجع إلى قريش قال : يامعشر قريش! إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه .

وفي رواية : إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمداً أصحابه وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً .

وأخرج الطبراني وابن حبان في صحيحه عن أسامة بن شريك رضي

الله عنه قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم إذ جاءه أناس فقالوا : من أحب عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : أحسنهم خلقاً » (كذا في الترغيب ج ٤ ص ٨٧) وقال : رواه الطبراني برجال محتج بهم في الصحيح .

وأخرج ابن سعد وأبو يعلى وابن عساكر عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأؤخر سنتين من هيبته .

وأخرج البيهقي عن الزهري قال : « حدثني من لا أتهم من الأنصار أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدروا نخامته فمسحوا بها وجوههم وجلودهم ، فقال رسول الله ﷺ : لم تفعلون هذا ؟ قالوا نلتمس به البركة ، فقال رسول الله ﷺ : من أحب أن يحبه الله فليصدق الحديث وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره » (كذا في الكنز ج ٨ ص ٢٢٨) .

والحاصل أن هنا أمرين عظيمين لابد من ملاحظتهما ، أحدهما : وجوب تعظيم النبي ﷺ ورفع رتبته عن سائر الخلق ، والثاني : إفراد الربوبية واعتقاد أن الله تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه ، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة ، ومن قصر بالرسول ﷺ عن شيء من

مرتبته فقد عصى أو كفر .

وأما من بالغ في تعظيمه ﷺ بأنواع التعظيم ، ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعاً ، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط .

وإذا وجد في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلي ولا سبيل إلى تكفيرهم ، إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة



الواسطة الشركية

يخطئ كثير من الناس في فهم حقيقة الواسطة فيطلقون الحكم هكذا جزافاً بأن الواسطة شرك، وأن من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت فقد أشرك بالله، وأن مستندهم في هذا قول الله تعالى حكاية عن المشركين ﴿ ما **نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾، وهذا الاستدلال مردود، والاستشهاد بالآية في غير محله، وذلك لأن هذه الآية الكريمة منصبة على الإنكار على المشركين عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة من دون الله وإشراكهم إياها في دعوى الربوبية على أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله زلفى، فكفرهم وإشراكهم من حيث عبادتهم لها ومن حيث اعتقادهم أنها أرباب من دون الله.

وهذه المسألة قد بسطنا القول فيها في بحث (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)، وحاصل ذلك وهو ما تفيده الآية هو أن الواسطة تنقسم إلى قسمين : واسطة شركية وواسطة إيمانية أو قل واسطة معبودة وواسطة محبوبة أو قل واسطة ممنوعة وواسطة مشروعة.

فالواسطة الأولى وهي الشركية المعبودة الممنوعة هي التي كان يتخذها المشركون ويعتقدون أن هذه الواسطة تقربهم من الله زلفى فيوجهون العمل والقول والطلب من دعاء ونذر وذبح وغير ذلك بنية العبادة لمن اتخذوهم أرباباً ومعلوم أن الأعمال والأقوال لا تكون عبادة

إلا إذا قارنها اعتقاد الربوبية أو اعتقاد خصيصة من خصائصها في معبوداتهم وهم وإن لم يعتقدوا لأربابهم خلقاً ولا رزقاً ولا تدبيراً للأمور العظام فإنهم يعتقدون فيهم بعض خصائص الربوبية بإثبات المشيئة النافذة لهم في أمور أهل الأرض بالتصرف فيهم استقلالاً نفعاً وضراً ونصراً وإعطاء ومنعاً وشراكة في الملك والربوبية والقول بشفاعتهم عليه تعالى بحكم شراكتهم في الربوبية كما قال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ ففي الآية دلالة على أن دعاء المشركين كان مصحوباً باعتقاد المشركين لآلهتهم صفات الربوبية من ضر ونفع .

أما الواسطة الثانية وهي الواسطة الإيمانية فهي الواسطة المشروعة المحبوبة المطلوبة ، وهذه الواسطة لابد منها وينبني عليها أمر الكون وتقوم عليها الشرائع والديانات .

ومن هذه الوسائط الرسل والأنبياء والملائكة وما أمرنا بالرجوع إليه والتوسل به إلى الله محبة ومودة لا عبادة واعتقاداً ويدخل في ذلك توسلات الموحدين وجعل الأنبياء والصالحين واسطة بينهم وبين الله في قضاء الحوائج والشفاعة .

وهؤلاء لم يوجهوا ذلك إلى الوسيلة بنية العبادة له ولا باعتقاد أنهم أرباب ولا باعتقاد أن لأحد مع الله فعلاً أو تركاً بل مجرد أسباب للطلب منه تعالى بواسطتهم دعاء وشفاعة وتوسلاً إليه بأنبيائه

بالصالحين ويخصون الله بالعبادة دون غيره ويعتقدون أنه المالك للضر والنفع ولكل خصائص الربوبية

ألا ترى أن الله لما أمر المسلمين باستقبال الكعبة في صلاتهم وجهوا بعباداتهم إليها واتخذوها قبلة ، وليست العبادة لها ، وتقبيل الحجر الأسود إنما هو عبودية لله تعالى ، واقتداء بالنبي ﷺ ولو أن أحداً من المسلمين نوى العبادة لهما لكان مشركاً كعبدة الأوثان

فهذه هي الوساطة لابد منها وهي ليست شركاً وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعتبر مشركاً ، وإلا لكان البشر كلهم مشركين بالله لأن أمورهم جميعاً تبنى على الواسطة ، فالنبي ﷺ تلقى القرآن بواسطة جبريل ، فجبريل واسطة للنبي ﷺ ، وهو ﷺ الواسطة العظمى للصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فقد كانوا يفزعون إليه في الشدائد فيشكون إليه حالهم ويتوسلون به إلى الله ويطلبون منه الدعاء فما كان يقول لهم أشركتم وكفرتم فإنه لا يجوز الشكوى إليَّ ولا الطلب مني بل عليكم أن تذهبوا وتدعوا وتسألوا بأنفسكم فإن الله أقرب إليكم مني ، لا ، بل يقف ويسأل مع أنهم يعلمون كل العلم أن المعطي حقيقة هو الله ، وأن المانع والباسط والرازق هو الله ، وأنه ﷺ يعطي بإذن الله وفضله ، وهو الذي يقول : « إنما أنا قاسم والله معطي » ، وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أي بشر عادي بأنه فرج الكربة وقضى الحاجة أي كان واسطة فيها ، فكيف بالسيد الكريم

والنبـي العظيـم أشـرف الكـونين وسيد الثقلين وأفضل خلق الله على الإطلاق ؛ ألم يقل النبي ﷺ كما جاء في الصحيح : « من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا » إلخ ؟ فالمؤمن مفرج الكربات

ألم يقل ﷺ « من قضى لأحد حاجة كنت واقفاً عند ميزانه فإن رجح وإلا شفعت له » ؟ فالمؤمن قاض للحاجات .

ألم يقل في الصحيح : « من ستر مسلماً » .. الحديث ؟

ألم يقل النبي ﷺ : « إن لله عز وجل خلقاً يفزع إليهم في الحوائج » ؟

ألم يقل في الصحيح : « والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » ؟ .

ألم يقل في الحديث : « من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وتسعين حسنة » ؟ رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي .

فالمؤمن هنا فرج وأعان وأغاث وقضى وستر وفزع إليه مع أن المفرج والقاضي والستار والمعين حقيقة هو الله عز وجل ، لكنه لما كان واسطة في ذلك صح نسبة الفعل إليه .

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تفيد أن الله سبحانه وتعالى يدفع العذاب عن أهل الأرض بالمستغفرين وعمار المساجد ، وأن الله سبحانه وتعالى يرزق بهم أهل الأرض

وبنصرهم وبصرف عنهم البلاء والغرق .

روى الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن مانع الديلمي رضي الله تعالى عنه أنه قال قال النبي ﷺ : « لولا عباد لله ركع وصبية رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً ثم رض رضاً » .

وروى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » .

وروى الترمذي وصححه الحاكم عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال : « لعلك ترزق به » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله عز وجل خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع إليهم الناس في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله تعالى » ، رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم والقضاعي وهو حسن .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم » . أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢ / ٣٤١ ، وأخرجه النسائي في المواعظ من السنن الكبرى كما في التحفة ١٣ / ٣٨٥ ، ورجال إسناده رجال الصحيحين غير شيخ النسائي وهو ثقة وفيه كلام .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ الآية . رواه الطبراني .

وعن ثوبان رفع الحديث قال : « لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله » .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال . قال ﷺ : « الأبدال في أمتي ثلاثون ، بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة : إني لأرجو أن يكون الحسن منهم » . رواه الطبراني .

ذكر هذه الأحاديث الأربعة الحافظ ابن كثير في التفسير عند قوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله النّاس ﴾ - في سورة البقرة - وهي صالحة للاحتجاج ، ومن مجموعها يصير الخبر صحيحاً .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن ، فبهم تسقون وبهم تنصرون ، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر » .. رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن (كذا في مجمع الزوائد ج ١٠ / ٦٢) .

الواسطة العظمى :

وفي يوم المحشر الأعظم الذي هو يوم التوحيد ويوم الإيمان يوم

يبرز العرش ، يظهر فضل الواسطة العظمى صاحب اللواء المعقود والمقام المحمود والحوض المورود الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته ولا تضيع ضمانته عند من وعده بأن لا يخيب ظنه ولا يخزيه أبداً ولا يحزنه ولا يسوؤه في أمته حيث يتوجه الخلق إليه ويستشفعون به فيقوم فلا يرجع إلا بخلعة الإحسان وتاج الكرامة المتمثل في قول الله له : « يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه » .

حقيقة الأشاعرة

يجهل كثير من أبناء المسلمين مذهب الأشاعرة ، ولا يعرفون من هم الأشاعرة ، ولا طريقتهم في أمر التوحيد ، ولا يتورع البعض أن يطعن فيهم أو يضللهم أو يرميهم بالمروق من الدين والإلحاد في صفات الله .

وقد يجهل مذهب الأشاعرة سبب تمزق وحدة (أهل السنة) وتشتت شملهم حتى غدا بعض الجهلة يجعل (الأشاعرة) ضمن فرقة أهل الضلال . ولست أدري كيف يقرن بين أهل الإيمان وأهل الضلال ؟ وكيف يساوي بين أهل السنة وبين غلاة المعتزلة وهم الجهمية ؟

﴿ فنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾

الأشاعرة : هم أئمة أعلام الهدى من علماء المسلمين الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها ، وأطبق الناس على فضلهم وعلمهم ودينهم ، هم جهابذة علماء أهل السنة وأعلام علمائها الأفاضل الذين وقفوا في طغيان المعتزلة .

هم الذين قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية : والعلماء

أنصار علوم الدين والأشاعرة أنصار أصول الدين (الفتاوى الجزء الرابع)

إنهم طوائف المحدثين والفقهاء والمفسرين من الأئمة الأعلام كشيخ الإسلام أحمد ابن حجر العسقلاني شيخ المحدثين بلا مراء صاحب كتاب (فتح الباري على شرح البخاري) أشعري المذهب وكتابه لا يستغني عنه أحد من العلماء .

وشيخ علماء أهل السنة الإمام النووي صاحب (شرح صحيح مسلم) وصاحب المصنفات المشهورة أشعري المذهب .

وشيخ المفسرين الإمام القرطبي صاحب تفسير (الجامع لأحكام القرآن) أشعري المذهب .

وشيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي صاحب كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) أشعري المذهب .

وشيخ الفقه والحديث الإمام الحجة الثبت زكريا الأنصاري (أشعري المذهب) .

والإمام أبو بكر الباقلاني والإمام القسطلاني والإمام النسفي والإمام الشربيني وأبو حيان النحوي صاحب تفسير (البحر المحيط) ، والإمام ابن جزى صاحب (التسهيل في علوم التنزيل) إلخ .. كل هؤلاء من أئمة الأشاعرة .

ولو أردنا أن نعدد هؤلاء الأعلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء من أئمة الأشاعرة لضاق بنا الحال واحتجنا إلى مجلدات في سرد أولئك العلماء الأفاضل الذين ملأ علمهم مشارق الأرض ومغاربها . إن من الواجب أن نرد الجميل لأصحابه وأن نعرف الفضل لأهل العلم والفضل الذين خدموا شريعة سيد المرسلين ﷺ من العلماء الأعلام .

وأي خير يرجى فينا إن رمينا علماءنا الأعلام وأسلافنا الصالحين بالزيغ والضلال ؟

وكيف يفتح الله علينا لنستفيد من علومهم إذا كنا نعتقد فيهم الانحراف والزيغ عن طريق الإسلام .

إنني أقول : هل يوجد بين علماء العصر من الدكاترة والعباقرة ، من يقوم بما قام به شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني والإمام النووي ، من خدمة السنة النبوية المطهرة ، كما فعل هذان الإمامان الجليلان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان ؟

فكيف نرميهما – وسائر الأشاعرة – بالضلالة ونحن بحاجة إلى علوم هؤلاء ؟! .

وكيف نأخذ العلوم عنهم إذا كانوا على ضلال ؟ ، وقد قال الإمام ابن سيرين رحمه الله : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

أفما كان يكفي أن يقول المعارض : إنهم رحمهم الله اجتهدوا فأخطأوا في تأويل الصفات ، وكان الأولى أن لا يسلكوا هذا المسلك ، بدل أن يرميهم بالزيغ والضلال ، ويغضب على من عدهم من أهل السنة والجماعة

وإذا لم يكن الإمام النووي والعسقلاني والقرطبي والباقلاني والفخر الرازي والهيتمي وزكريا الأنصاري وغيرهم من جهابذة العلماء ، وفطاحل النبغاء من أهل السنة والجماعة ، فمن هم أهل السنة إذن ؟

إنني أدعو مخلصاً كل الدعاة وكل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يتقوا الله في أمة محمد ﷺ وبخاصة في أجلة علمائها وأحبار فقهائها ، فأمة محمد ﷺ بخير إلى قيام الساعة ولا خير فينا إذا لم نعرف لعلمائنا قدرهم وفضلهم [1] .

---

(1) انظر ما كتبه شيخنا العلامة الشيخ محمد علي الصابوني في مسألة الأشاعرة من بحوث طويلة مهمة

حقائق تموت بالبحث

ويجري البحث بين العلماء في حقائق كثيرة من مسائل العقيدة لم يتكلم عنها [illegible] الله تعالى ، وأنا أرى أن ذلك البحث يذهب بهيبة تلك الحقائق وجلالها ، وذلك مثلاً كاختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ ربه سبحانه وتعالى وكيف كانت ، والخلاف الطويل العريض الذي بينهم في [illegible] فمن قائل رآه بقلبه ، ومن قائل رآه بعينه ، وكل يورد أدلته ويستنصر له بما لا طائل تحته ، والذي أراه أن كل ذلك بحث لا فائدة فيه بل ضرره أكبر من نفعه ، خصوصا إذا سمع العوام هذا فإنه يدخل التشكيك في قلوبهم لا محالة ، ولو أننا ألغينا البحث عن هذا واكتفينا بإيراد هذه الحقيقة كما جاءت لبقيت مكرمة معظمة في النفوس بأن نقول إنه ﷺ رأى ربه ونقتصر على هذه الحقيقة ونترك [illegible]قي له هو

وكلم الله موسى تكليماً :

ومن ذلك أيضاً ما يجري بين العلماء من البحث في حقيقة كلام الله تعالى والخلاف الكبير الدائر في هذا الباب ، فمن قائل إن كلامه سبحانه وتعالى كلام نفسي ومن قائل : إن كلامه سبحانه وتعالى بحرف وصوت ، وأنا أعتقد أن كلا الطرفين

بطلب حقيقة التنزيه لله سبحانه وتعالى وبعد عن الشرك بكل أنواعه.

ومسألة الكلام حقيقة ثابتة لا مجال لإنكارها إذ هو لا ينافي الكمال الإلهي هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن صفاته سبحانه وتعالى متواترة في القرآن يجب الإيمان بها وإثباتها لأنه لا يعرف الله ...

... هو إثبات هذه الحقيقة دون الخوض في كيفيته ... لله سبحانه وتعالى الكلام، ونقول هذا كلام ... به سبحانه وتعالى متكلم، ونصرف النظر عما بعد ... من كونه كلاماً نفسياً أو غير نفسي بحرف وصوت أو لا حرف ولا صوت. وكل هذا تنطع لم يتكلم فيه الذي جاء بالتوحيد وهو المصطفى ﷺ ... الزيادة على ما جاء به؟ أليس هذا من أقبح البدع؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

هو ﷺ يحدثنا عنه يوم نجتمع به عند الله سبحانه وتعالى، نحن ندعو إلى أن يكون حديثنا دائماً عن هذه الحقيقة وأمثالها مجرداً عن الغوص في كيفياتها وصورها وأشكالها.

إني أراكم من خلفي:

ومن ذلك أيضاً ما يجري بين العلماء من البحث في حقيقة قوله

ﷺ : « إني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي » فمن قائل : إن الله تعالى يجعل لنبيه ﷺ عينين من الخلف ، ومن قائل : إن الله سبحانه وتعالى يجعل لعينيه الأماميتين قوة نفاذة ترى بها ما خلفهما ، ومن قائل : إن الله سبحانه وتعالى يعكس له ﷺ ما خلفه حتى تكون صورته أمامه بين عينيه ، وكل هذا تنطع يخرج هذه الحقيقة عن جمالها وروعتها ، ويضعف هيبتها وجلالها في القلوب .

أما كونه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه فهي حقيقة ثابتة أخبر بها بنفسه فيما صح عنه فلا مجال لإنكارها ، ولكن الذي ندعو إليه ونراه هو أن نثبت هذه الحقيقة هكذا مجردة كما وردت دون الدخول في كيفيتها وشكلها ، يجب علينا أن نعتقد إمكان ذلك وثمرته بأن نشهد بخارق من الخوارق التي تضمحل عندها الأسباب وتتلاشى لتظهر قدرة الواحد القهار ومنقبة النبي المختار ﷺ .

جبريل يتمثل رجلاً :

ومن ذلك أيضاً اختلاف العلماء في كيفية تشكل جبريل عليه السلام إذا جاء بالوحي على صورة رجل مع هول خلقه .

فمن قائل : إن الله يفني الزوائد من خلقه ، ومن قائل : إنه ينضم بعضه إلى بعض حتى يصير صغيراً ، والذي أراه أن كل ذلك عبث ، وأن البحث فيه تعب لا فائدة منه ، فنحن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى قادر على ذلك ، وأن هذا واقع ومشاهد ، فقد رآه كثير من

الصحابة على تلك الصورة ونحن لا يهمنا معرفة الطريقة التي يتم بها تمثل الملك بصورة رجل ، وندعو إخواننا من طلاب العلم إلى إيراد هذه الحقيقة دون التعرض لما وراءها من خلافات لتبقى جليلة عظيمة في النفوس

الخاتمة

عقيدة الإسلام

وبعد فإننا نعلم ونعتقد ونؤمن ونوقن ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله عظيم ، ملك كبير ، لا رب سواه ، ولا معبود غيره ، قديم أزلي ، دائم أبدي ، لا ابتداء لأوليته ، ولا انتهاء لآخريته ، أحد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ لا شبيه له ولا نظير ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾

وأنه تعالى مقدس عن الزمان والمكان ، وعن مشابهة الأكوان ولا تحيط به الجهات ، ولا تعتريه الحادثات مستوٍ على عرشه على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء يليق بعز جلاله ، وعلو مجده وكبريائه

وأنه تعالى قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وعلى كل شيء رقيب وشهيد ، حي قيوم ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ .

﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾

وأنه تعالى على كل شيءٍ قدير ، وبكل شيء عليم

﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾ ﴿ ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴾ ﴿ يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومـا يعرج فيهـا وهـو معكم أين ما كنتم والله بمـا تعملـون بصير ﴾ ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ ﴿ ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾

وأنه تعالى مريد للكائنات ، مدبر للحادثات .

وأنه لا يكون كائن من خير أو شر ، أو نفع ، أو ضر ، إلا بقضائه ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يحركوا في الوجود ذرة أو يسكنوها دون إرادته تعالى لعجزوا عنه .

وأنه تعالى سميع بصير ، متكلم بكلام قديم أزلي لا يشبه كلام الخلق .

وأن القرآن العظيم كلامه القديم ، وكتابه المنزل على نبيه ورسوله محمد ﷺ .

وأنه سبحانه الخالق لكل شيء ، والرازق له والمدبر له ، والمتصرف فيه كيف شاء ؛ ليس له في ملكه منازع ولا مدافع ، يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء

﴿ لا يُسألُ عمّا يفعلُ وهُم يُسألون ﴾.

وأنه تعالى حكيم في فعله ، عدل في قضائه ؛ لا يتصور منه ظلم ولا جور ، ولا يجب عليه لأحد حق ، ولو أنه سبحانه أهلك جميع خلقه في طرفة عين لم يكن بذلك جائراً عليهم ، ولا ظالماً لهم ، فإنهم ملكه وعبيده ، وله أن يفعل في ملكه مايشاء ، وما ربك بظلام للعبيد ، يثيب عباده على الطاعات فضلاً وكرماً ، ويعاقبهم على المعاصي حكمة وعدلاً.

وأن طاعته واجبة على عباده بإيجابه على ألسنة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام .

ونؤمن بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله وبملائكة الله تعالى وبالقدر خيره وشره .

ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، أرسله إلى الجن والإنس ، والعرب والعجم – بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وأنه صادق أمين ، مؤيد بالبراهين الصادقة ، والمعجزات الخارقة ، وأن الله فرض على العباد تصديقه وطاعته واتباعه .

وأنه لا يقبل إيمان عبد - وإن آمن به سبحانه - حتى يؤمن برسالة محمد ﷺ، وبجميع ماجاء به، وأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة والبرزخ .

« ومن ذلك » أن تؤمن بسؤال منكر ونكير للموتى : عن التوحيد والدين والنبوة .

وأن يؤمن بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذابه لأهل المعصية .

وأن يؤمن بالبعث بعد الموت وبحشر الأجساد والأرواح إلى الله ، وبالوقوف بين يدي الله ، وبالحساب ، وأن العباد يتفاوتون فيه إلى مسامح ومناقش ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب .

وأن يؤمن بالميزان الذي توزن فيه الحسنات والسيئات وبالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم ، وبحوض نبينا محمد ﷺ : « الذي يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، وماؤه من الجنة » .

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم الصديقين والشهداء ، والعلماء والصالحين والمؤمنين . وأن الشفاعة العظمى مخصوصة بمحمد ﷺ .

وأن يؤمن بإخراج من دخل النار من أهل التوحيد ، حتى لا يخلد فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان . وأن أهل الكفر والشرك مخلدون في النار أبد الآبدين ، و ﴿ لا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذَابُ وَلا هُم يُنظَرُونَ ﴾. وأن المؤمنين مخلدون في الجنة أبداً سرمداً ﴿ لا يَمَسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ وَمَاهُم مِنهَا بِمُخرَجِينَ ﴾ .

وأن المؤمنين يرون ربهم في الجنة بأبصارهم ، على ما يليق بجلاله وقدس كماله .

وأن يعتقد فضل أصحاب رسول الله ﷺ وترتيبهم ، وأنهم عدول خيار أمناء ، لا يجوز سبهم ، ولا القدح في أحد منهم ، وأن الخليفة الحق بعد رسول الله ﷺ « أبو بكر الصديق » ثم « عمر الفاروق » ثم « عثمان الشهيد » ثم « علي المرتضى » ، رضي الله تعالى عنهم وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين ، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا معهم برحمتك اللهم يا أرحم الراحمين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين

وكتبه
السيد محمد بن علوي المالكي الحسني
خادم العلم الشريف
بالبلد الحرام

الفهـــرس

الموضــــــوع	الصفحة